
ذاكرة للنسيان
محمود درويش

# ذاكرة للنسيان

محمود درويش

منشورات وزارة الثقافة
بالتعاون مع
دار الناشر



رام الله ١٩٩٧

**سيرة يوم**

الزمان: آب

المكان: بيروت

محمود درويش

# ذاكرة للنسيان

من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟.

- كيف عرفتِ أنني كنتُ أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟.

- لأنكَ أيقظتني حين تحرّكْت في بطني. أدركتُ أني تابوتك. هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟

- هل يحدث ذلك كثيراً: أن يوقظني من المنام منام آخر هو تفسيرُ المنام؟.

- هل هو يحدث لي ولك... هل أنتَ حيّ؟

- تقريباً.

- وهل أصابتك الشياطين بسوء؟.

- لا أعرف، ولكنّ في الوقت متسعاً للموت.

- لا تمتْ تماماً.

- سأحاول.

- لا مت أبداً.

- سأحاول.

- قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا؟.

- منذ ثلاثة عشر عاما.

- هل التقينا كثيراً؟

- مرتين: مرة حت المطر، ومرةً حت المطر، وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. سافرت. ونسيتكِ. وقبل قليل ذكرت. ذكرت أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

- وهذا ما يحدث لي... كنتُ أحلم. ولقد حصلتُ على رقم هاتفك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا نس أن لا موت. ما زلتُ أريدك. وعندما حيا، ثانية، أريدك أن كلمني. يا للزمن... ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة...

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوكٌ معدنية. دخان. حديد يُعدُّ وليمة الحديد السيّد. وفجر يندلع في الحواس كُلّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممر الضيق. ولا أريد شيئاً، لا

أتمنى شيئاً. ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف أُنظِّم زحام هذا الموت المنصبّ. لو أعرف كيف أُحرِّرُ الصراخ المحتقن في جَسَدٍ لم يعد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في َتَبُّع فوضى القذائف. كفى.. كفى – همستُ لأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير الى مكان الهاوية المفتوحة من جهٍات ست. لا أستطيع أن استسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أُقاومه. حديد يعوي فينبح له حديد آخر. حُمّى المعادن هي نشيد هذا الفجر..

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقائق. أكاد أقول: خمس دقائق فقط أُعدّ خلالها عُدّتي الوحيدة ثم أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل كفي؟ نعم.. كفي لأتسرّب من هذا الممر الضيّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمام  لا ماء فيه، والمفتوح على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذً ساعة ولا أستطيع.. لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتي قُطْن في أذنيّ، ونمتُ بعدما استمعتُ إلى نشرة الأخبار الأخيرة. لم قل إني ميت.

معنى ذلك أنني حيّ. فقَّدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع حت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. اصبع في الوسط. وأما القلب فإنه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقىً على أحد رفوف المكتبة.. مُسدس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها منذ عامين خوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن، أنا حيّ، وبتعبير أدق: أنا موجود.

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو حصتي منه، على قدميه، ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم. نحن في آب. وتحولت الحرب الى حصار. أبحث في الراديو، المتحول الى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية غري أي صيّاد بالإصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوِّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟

واجهة البناية الشمالية كانت ُمتِّع سكانها بمشهد ما لسقف البحر المتجعِّد، لأنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عراء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أصلُ إلى المطبخ؟.

أريد رائحة القهوة. لا أريدُ غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميّ، لأتحوّل من زاحف الى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميه، لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر.

كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائف البحر نقضٌّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا كفي لأن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا كفي لأن أفتح زجاجة

الماء، ثانية واحدة لا كفي لأن أصبّ الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا كفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة كفي لأن أحترق..

أقفلتُ مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضيّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة - في مثل هذه الحالات - أن وفّر غطاء الأمان الوهميّ. فالموت هو أن رى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدّدت مهمتي وهدفي. وثبت حواسي كُلّها في نداء واحد، واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة..

والقهوة، لمن أدمنها مثلي، هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن صنعها بيديك، لا أن أتيك على طبق، لأن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة

الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام.

ورائحة القهوة تشرّب الأصوات، ولو كانت حيةً رقيقة مثل «صباح الخير»، وتفسد..

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمتُ الصباحي، الباكر، المتأني، والوحيد الذي قف فيه، وحدك، مع ماء ختاره بكسل وعزلة في سلام مبتكر مع النفس والأشياء، وتسكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنّي، ثم ضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب..

إبتعدْ قليلاً عن النار الخفيفة، لتطلّ على شارع ينهض للبحث عن خبزه، منذ ورط القردُ بالنزول عن الشجرة وبالسير على قدمين، شارع محمول على عربات الخضار والفواكه وأصوات الباعة المتميزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة الى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ الى النار الخفيفة - آه لو كانت نار الحطب - وراقب بمودة وتؤده علاقة العنصرين: النار التي تلوّن بالأخضر والأزرق،

والماء الذي يتجعّد ويتنفّسُ حبيبات صغيرة بيضاء تحوّل إلى جلد ناعم، ثم كبر.. كبر على مهل لتنتفخ فقاعاتٍ تسع وتتسع بوتيرة أسرع وتنكسر، نتفخ وتنكسر عطشى لالتهام ملعقتين من السُكّر الخشن الذي ما أن يداخلها حتى هدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشرئبة إلى مادة أخرى هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية..

أبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري حوار اليد الطاهرة من رائحة التبغ والحبر مع أولى إبداعاتها، مع إبداع أول سيحدّد لك، منذ هذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن عمل أم تجنب العلاقة مع أحد طيلة هذا اليوم. فإن ما سينتج عن هذه الحركة الأولى، وعن إيقاعها، وعم يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، وعما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهوة، فنجان القهوة الأول، هي مرآة اليد. واليدُ التي صنع القهوةَ تُشيع نوعية النفس التي حركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءةُ العلنية لكتاب النفس المفتوح.. والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

ما زال الفجر الرصاصيّ يتقدم من جهة البحر على أصوات لم أعرفها من قبل. البحرُ برمته محْشُوٌّ في قذائف طائشة. البحر يبدل طبيعته البحرية ويتمعدن. أللموت كُلُّ هذه الأسماء؟ قلنا: سنخرج. فلماذا ينصب هذا المطر الأحمر – الأسود – الرمادي على من سيخرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجر؟

قلنا: سنخرج. قالوا: من البحر. قلنا: من البحر. فلماذا يسلحون الموج والزبد بهذه المدافع؟ ألكي نعجِّل الخطى نحو البحر؟ عليهم أن يفكوا الحصار عن البحر أولاً.. عليهم أن يخلوا الطريق الأخير لخيط دمنا الأخير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك.. فلن نخرج، إذن، سأُعدُّ القهوة..

صحت عصافيرُ الجيران في السادسة صباحاً. ابعت قاليد الغناء المحايد منذ وجدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوء. لمن غني في زحام هذه الصواريخ؟ غنيّ لتشفي طبيعتها من ليل سابق،ُغنّي لها لا لنا. هل كنا نعرف ذلك فيما مضى؟ لقد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحترقة. كانت سهام الصوت المتعرجة لتفُّ على القنابل وتشير إلى أرض سالمة في الفضاء. للقاتل أن يقتل.

للمقاتل أن يقاتل. وللعصفور أن يُغنّي. ولكنني أكفُّ عن طلب الكناية، أكفُّ ماماً عن التأويل، لأن من طبيعة الحروب أن تُحقِّر الرموز، وتعود بعلاقات البشر والمكان والعناصر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق مع ماسورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة.

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصوات العصافير، الـدوري بخاصة، العصافير التي لا كترث بهذه الحرب القادمة من البحر ما دام فضاؤها سالماً. وللماء طعم الماء ورائحةٌ هي رائحةُ الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يتموج بسنابل القمح الممتلئة، في امتداد متقطِّعِ الضوء كبُقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراءه وتّرُ جناحِ الدوري الصغير وهو يطير طيراناً واطئاً على حقل. وليس كل ما يطير طائرة. ولعلّ أسوأ الكلمات العربية هي أن الطائرة تأنيث «الطائر».

الطيور واصل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي أنيث هذا الطائر؟.

ولكن العصافير صمت فجأة. كفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبّت عاصفةُ الحديد الطائر. أمِنْ هديرها الفولاذي سكتت، أم من شابُهٍ غير متعادل في الشكل والاسم: جناحان من حديد وفضّة في مقابل جناحين من ريش. حيزوم من حديد وكهرباء في مقابل منقار من نشيد. حمولة من صواريخ في مقابل حبة قمح وقشة؟ وقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحرب، لأن أرض سمائها لم عد سالمة..

السماء نخفض، كأنها سقف إسمنتي يقع. البحر يتحوّل الى يابسة ويقترب. السماء والبحر من مادة واحدة. البحر والسماء يضيِّقان عليّ الخناق. أدرتُ مفتاح الراديو لأعرف أخبار السماء. لم أسمع شيئاً. جمّد الوقت. جلس عليّ ليخنقني. مرّت الطائرات من بين أصابعي. اخترقت رئتي. كيف أصل الى رائحة القهوة.

كيف أموت يابساً بلا رائحة القهوة. لا أريد.. لا أريد.. فأين إرادتي؟

وقَفَتْ هناك، على الطرف الثاني من الشارع، يوم أطلقنا النداء المضاد لزحف الخرافة علينا من الجنوب، يوم كوّر

اللحم البشري عضلة الروح وصاح: لن مروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحم مع الحديد وتغلّب على علم الحساب العسير، فتوقّف الغزاة على السور. هنالك وقت لدفن الموتى، وهنالك وقت للسلاح، وهناك وقت ليمرّ الوقت على هوانا.. لتطول البطولة، فنحن، نحنُ أصحابُ الوقت..

كان الخبز يصعد من التراب. وكان الماء ينبجس من الصخر. كانت صواريخهم حفر لنا آبار الماء، وكانت لغة قتلهم غرينا بالنشيد: لن نخرج. وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين غلي بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا نكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت – وسط هذا البحر، على بوابة هذه الصحراء أسماء لوطن مختلف، وعودة المعاني إلى مفرداتها، هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من الوسط..

فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلاّق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعةٍ ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجأ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الإنتقام من آباء حكماء، وبجنون

الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط.. هل، هل عرفوا أنهم يصححون، بجراحهم وطيشهم المبدع، حبر اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غرب لا يطلب من العبودية غير حسين شروط التحاقها، منذ حصار عكا في العصور الوسطى حتى حصار بيروت المُكَلف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط، ليرشدوا قارئ الرمل المضلّل إلى أسرار نسيج البطولة المكوّنة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية.. وأن يشق بنفسه، وحيداً هذا الفضاء المتطاول فيصوّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن شقّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم التي يريد أن يسوسها راعي القمع وراعي الخرافة، معاً، عبر سياج التواطؤ.

لن يمروا على حياتنا. فليمروا، إن استطاعوا أن يمروا، على ما لفظه الروحُ من جثث، فأين إرادتي؟

وقفتْ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فلا أريد أكثر من رائحة القهوة. خجلت. خجلتُ من خوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيها. ولدوا منها بعيداً عنها. وتعلّموها بلا انقطاع وبلا كلل أو ملل. علموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا - قيل لهم هناك.

ولستم من هنا - قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و «هناك» شدّوا أجسادهم قوساً يتوتّر، حتى اتخذ الموت فيهم هذه الصيغة الاحتفالية. لقد أخرج آباؤهم من هناك ليحلوا ضيوفاً على هنا، ضيوفاً مؤقتين، من أجل إخلاء ساحات الوطن من المدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية طهير أرض العرب وشرفهم من العار والدنس: «أخي جاوز الظالمون المدى، فحقّ الجهاد وحقّ الفدا.. طلعنا عليهم طلوع المنون، فكانوا هباء وكانوا سدى». وبقدر ما كانت

لك الأغاني طارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سطراً ، كان هؤلاء، هنا ، يولدون بلا مهد، وكيفما اتفق، على حصير أو في سلّة من قصب أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بلا شهادة ميلاد وبلا سجل أسماء ، بلا فرح وبلا ميلاد ، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب، ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة التشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا ميزهم وقرأوا الخطاب القومي، وقرأوا صادرات وكالة الغوث، وقرأوا سياط الشرطة. وظلّوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا اريخ الحصون والقلاع التي وقَّعها الغزاة لتخليد اسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلاّ ، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماءَ قادة عسكريين لا لشيء إلا لأن أولئك القادة قد نفسوا انطباعاً

أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد – ما أجملها – هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأسماء التي نشير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسكري منتصر، وصار من الصعب فكُّ الهوية عن هزيمتها. قلاع وحصون هي محاولات لحماية اسم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسيان. لا أحد يريد أن يَنْسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنْسى. وبشكل سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه اريخ طويل من عملية البحث عن وقيع على زمان أو مكان، ومن حلِّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة..

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشذوا عن قاعدة الطبيعة البشرية؟ لِمَ يُطالبون بهذا القدر من النسيان؟ ومن هو القادر على ركيب ذاكرة جديدة لهم لا محتوى لها غير ظلٍ مكسور لحياة بعيدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومن سيساعدهم على النسيان في هذا القهر الذي لا يتوقف عن ذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضون الهوية المرفوعة للتدليل على خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصرة الأوبئة، ويراقبون براعة استخدامها رافعةً قومية، فهؤلاء المنسيون، المطرودون من النسيج الاجتماعي الداخلي، المنبوذون، المحرومون من حقّ العمل والمساواة، مطالبون في الوقت ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفّر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بالنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرّب على التحرُّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كي لا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كي لا ينسى أن له سماء أُخرى. وعليه أن يعمل خادماً كي لا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كي لا ينسى فلسطين. وباختصار عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير..

حسناً.. حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي - بندقيتي، فلماذا يكيلون عليه هماً لا يُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول

الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالّة، وحين حرّك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، أقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقض عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة. وكان عليه أن ينتظر. ما العمل.. ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في حفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح ليستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا جاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس، في الداخل، ضد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا دخُّل في الشؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن، ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لست إلى هناك. ولست من هنا. ومن بين هذين النفيين وُلد هذا الجيل المدافع عن وعاء جسدي للروح، علّق عليه رائحة البلاد التي

لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولم يصدق أن الهزيمة حتمية. وتبع لك الرائحة.

منهم أخجل، دون أن أعرف أني أخجل منهم. الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرّ عليّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشرب القهوة الآن. سأمتلىء برائحة القوة الآن، لأتميز عن خروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة..

..ُبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري اليدُ أولى ابداعاتها. ولا كترث بالصواريخ والقذائف والطائرات. فتلك إرادتي: سأذيع رائحة القهوة لأمتلك فجري. لا نظر إلى الجبل الذي يبصق كتله النارية في اتجاه يدك. ولكنك لا ستطيع أن نسى أنهم يرقصون هناك، يرقصون من النشوة. كانت سيدات القرنفل، في صحف البارحة، يرتمين على دبابات الغزاة في الأشرفية. كان النصف الأعلى من نهودهن، والنصف السفلي من أفخاذهن عارياً من الصيف ومن المتعة، ومعداً جيداً لاستقبال المخلّصين. قَبِّلني يا شلومو، قبِّلني على فمي،

ما اسمك يا حبيبي لأناديك باسمك يا حبيبي، شلومو كم انتظَرَتْكَ شغافُ قلبي. أدخل، يا شلومو، أدخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسّ فيك القوة. كم أحبُّ القوة يا حبيبي. واقصفوهم يا حبيبي، واذبحوهم، واقتلوهم بكل ما فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنان يا سيد شلومو. اقصفوهم ريثما أُعدُّ لك كأس العرق والغداء يا حبيبي. بعد كم ساعة قضون عليهم، بعد كم ساعة؟ لقد طالت العملية، يا شلومو، طالت، فلماذا أنتم بطيئون يا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تقدمون؟ ولكن رائحتك كريهة، يا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعرق. سأغسلك بماء الفل يا حبيبي. لماذا بوُّل في الشارع؟ هل تكلم الفرنسية؟ لا؟ أين وُلدت؟ في عز؟ أين عز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس.. لا بأس. كنت أظُنّك شيئاً آخر. ما عليك يا شلومو! أُقصف من أجلي هناك.. هناك.

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهال رُّسى، ببطء، على جاعيد الماء الساخن، حركها حريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البداية، ثم من فوق إلى حت. ضيف إليها الملعقة الثانية، حركها من فوق إلى حت ثم حركها حريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم سكب عليها الملعقة الثالثة. بين

الملعقة والأخرى أبعد الإناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأشقر على سطح الماء، تموّج وتتأهب للغرق. لا دعها غرق. أطفىء النار ولا كترث بالصواريخ. خذ القهوة إلى الممرّ الضيّق. صُبّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون فسد حرية القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غير مذاق السيجارة التي تبع عملية الحب، بينما المرأة دخِّن آخر العرق وخفوت الصوت..

ها أنذا أولد. امتلأت عروقي بمخدرها المنبّه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافايين والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتساءل: كيف كتب يدٌ لا بدع القهوة؟ كم قال لي أطباء القلب، وهم يدخنون: لا دخِّن ولا شرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخّن ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعرف قهوتي، وقهوة أمي، وقهوة أصدقائي. أعرفها من بعيد وأعرف الفوارق بينها. لا قهوة شبه قهوة أخرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصية الفارق. ليس هنالك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليس مفهوماً وليست مادة واحدة، وليست مطلقاً. لكُلِّ شخص قهوته الخاصة، الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته. ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. ذلك يعني أن مطبخ السيدة ليس مُرتّباً. وثمة قهوة لها مذاق عصير الخروب. ذلك يعني أن صاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحة العطر. ذلك يعني أن السيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب في الفم. ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القِدم من فرط ما ألبّ البن في الماء الساخن. ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي - ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة..

لا قهوة شبه قهوة أخرى. لكُلّ بيت قهوته، ولكُلّ يد قهوتها، لأنه لا نفس شبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: سير في خط مستقيم، في البداية، ثم تعرج وتتلوى وتتأوّد وتتأوّه وتلتفّ على سفوح ومنحدرات، تشبّث بسنديانة أو

بلوطة، وتتفلّت لتهبط الوادي وتلتفت إلى وراء، وتتفتّت حنيناًإلى صعود الجبل وتصعد حين تشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوّل.

رائحةُ القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تحدّر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت عود. القهوة مكان. القهوةُ مسام سُربْ الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوَحِّد ما لا يتوحّدُ إلا فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضع الرجال بعيداً. صباحٌ مولود من مذاق مُر حليبُ الرجولة. والقهوة جغرافيا..

من هي لك الناهضةُ من منامي؟

هل هي حقاً كانت خاطبني قبل الفجر، أم كنت أهذي وأواصل المنام صاحياً؟

لم نلتق غير مرتين. في المرة الأولى حفظت اسمي، وفي المرة الثانية حفظتُ اسمها. وفي المرة الثالثة لم نلتق. فلماذا ناديني الآن من حلم كنتُ أنام فيه على ركبتها؟ لم أقل لها في المرة الأولى: أحبك. ولم قل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً..

واعتدتُ أن أحصي عدد السوس في صحن حساء العدس، الطبق اليومي في السجون.. واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأنّ الشهية تكيّف، ولأن الجوع أقوى من الشهية. ولكنني لم أتكيّف أبداً مع غياب القهوة الصباحية، ومع ناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السجن؟ سألتني صديقة بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شيء فظيع. وأضافت: ولكنني لا أشربُ القهوة. قلت لا أعرف سيدات كثيرات مهووسات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها ُفضِّل المكياج!

ليس ذلك ما آلمني. لقد مكن أحد زملائي السجناء من احضار فنجان من القهوة لي، ذات صباح، لقّفتُه بشبق ومنحتُ نفسي وقتاً للتأمل، مما دفع زميلاً آخر إلى صويب نظرة استعطاف نحو الفنجان، جاهلتُها لأتوحّد مع ملكيتي، جاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسادية أيقظتْ فيّ إحساساً بالإثم فيما بعد. كان ذلك قبل عشرين عاماً، وما زالت لك النظرة المتوسلة لاحقني إلى الآن داعيةً إيّاي إلى إعادة النظر المستمرة في نفسي وإلى هذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم

الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاولة لرشوة وازني النفسي. ما أشدّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أمي لزيارتي ومعها ابريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب...



والقهوة لا ُشرب على عجل. القهوةُ أُختُ الوقت. ُحْتَسى على مهل.. على مهل. القهوةُ صوت المذاق، صوت للرائحة. القهوة أمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات. والقهوة عادة لازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل سجيل الواقع، ليس واقعاً ماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الاسرائيلية لا يكفُّ عن كذيب «الشائعات» القائلة أن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أن الصحف الاسرائيلية لم صل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ

بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية إدمان. أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات. لقد جُنّت السماء. جُنّت ماماً. يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تسع منطقة المطار لكُل هذه القذائف القادرة على قَتْل بحر؟ أفتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الاعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. عال إلى مارلبورو، عال إلى حيث المتعة. ميّة الصحة.. صحة «صحة من جبل عالي». ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت كارلو الخارجات للتو من الحمام أو غرف النوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت؟. أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار. أحوِّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن. الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين، أصوات منقولة على موجة قصيرة مكبرة إلى موجة متوسطة حوِّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو

للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحدث لولا صعوبة الاتصال بالوقائع لعلّ في الأمر ما يدل على أن كلا المتحاربين يحاول عسى ولا سيما ناهيك عن غموض ما قد يسفر عن طائرات مجهولة أسماء الطيارينُ حلّق إذا أردنا الدقة حيث قد يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة، المعلومات نتهي بأغنية ذات لغة عربية سليمة العواطف لمحمد عبدالوهاب: يا جيني يا قوللي أروح لك يا قوللي أروح منك فين.

أصوات متشابهة الرتابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة صف الموت كما صف الأحوال الجوية، وكما لا صف سباق الخيل والدراجات. عَمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تساقط من الجهات كُلّها. ألا كفيني هذه القراءة؟

ليس ذلك ماماً. فالباحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من الموت وحيداً إلى الموت الجماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشترك، وعن كلام متبادل، باحث عن مشاركة ما في الموت، عن شاهد يشهد، عن شاهد على جثة، عن مُبلغٍ عن سقوط حصان، عن لغة للصمت

وللكلام، عن انتظار أقلّ ضجراً لموت أكد. فإن ما يقوله هذا الفولاذ، هذه الوحوش الفولاذية، هو أن أحداً لن يرى السكينة.. ولن يحصي قتلانا..

كنتُ أكذب على نفسي، فليست فيّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأنقاض، فريسة أنين لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحادثة وقد حدثت. أنا الآن هناك بين الأنقاض. أحسُّ بوجع الحيوان المهروس فيّ. وأصرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم – الشبح» القادم من اتجاه معاكس، مما قد يحدث. بعض الذين يصابون بساقهم يواصلون الاحساس بالوجع في الساق حتى بعد بترها بسنين. إنهم يمدون أيديهم لتحسس موضع الوجع في ساق لم يعد لها وجود.. وقد يلاحقهم هذا الوجع الوهمي الوجع الشبح إلى آخر العمر. أما أنا، فأشعر بوجع شديد جرّاء إصابة لم حدث.. لقد طُحِنَتْ ساقاي حت الأنقاض.

وهذه ظنوني: قد لا يقتلني الصاروخ بشكل خاطف دون أن أشعر. فقد ينهار عليّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واستغاثة لا بلّغ مصيري إلى أحد. قد يطحن ساقي

أو ذراعي أو جمجمتي، أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيها لأحد للبحث عن بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالاسمنت والحديد والتراب فلا يدُلُّ شيء عليّ. وقد ينغرز زجاج نظارتي في عيني فأُصاب بالعمى. وقد يتغلغل عامود من الحديد في خاصرتي. وقد أُنسى في زحام اللحم البشري الممعوس المفقود بين الأنقاض. ولكن، لماذا أهتم بمصير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في ابوت خشبي ملفوف بعَلَم واضح الألوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا دلًّ ألفاظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي - الأعداء.

وأريد أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر. لا أريد اللون الورديّ الرخيص ولا أريد البنفسج لأنه يذيع رائحة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة، قليل البحة، قادراً على ادعاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة حمل صوتي بعض الكلام. أريد جنازة هادئة، واضحة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقاء. فما أجمل حظ الموتى الجدد، في اليوم الأول من الوداع، حين يتبارى المودعون في مدائحهم. فرسان ليوم واحد، محبوبون

ليوم واحد، أبرياء ليوم واحد.. لا نميمة ولا شتيمة ولا حسد. حسناً، وأنا بلا زوجة وبلا ولد. فذلك يوفر على بعض الاصدقاء جهد التمثيل الطويل لدور حزين لا ينتهي إلا بحنوٍّ الأرملة على المعزِّي. وذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسات ذات البيروقراطية البدوية. حسنٌ أني وحيد.. وحيد.. وحيد، لذلك ستكون جنازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أطلُّ منه، كما يريد وفيق الحكيم أن يطل، على المشيعين.. أسترقُ النظر إلى طريقتهم في الوقوف، وفي المشي، وفي التأفف، وفي حويل اللعاب إلى دموع. وأستمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النساء، وكان يبذخ في اختيار الثياب. وكان سُجّاد بيته يصل الى الركبتين، وكان له قصر على الساحل الفرنسي اللازوردي، وفيّللا في اسبانيا، وحساب سريّ في زيوريخ، وكانت له طائرة سرية خاصة، وخمس سيارات فخمة في مرآب بيته في بيروت. ولا نعرف إذا كان له يخت خاص في اليونان. ولكن في بيته من أصداف البحر ما يكفي لبناء مخيّم. كان يكذب على النساء. مات الشاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مرحلته وانتهينا من خرافته، أخذ شعره معه ورحل. كان

طويل الأنف واللسان.. وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تحرر المخيلة من كُلّ شيء. سأبتسم في التابوت، سأبذل جهداً لأن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.



أما أن أموت هنا، فلا. لا أريد الموت حت الأنقاض. سأدعي لنفسي أنني ذاهب إلى الشارع للبحث عن الجريدة، فالخوف عار في حُمى البطولة المتفشية من جميع الناس، من أولئك الذين لا نعرف أسماءهم على خطوط الاشتباك، ومن أولئك البسطاء الذين اختاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسوا أيامهم للبحث عن نكة ماء وسط مطر القذائف، اختاروا أن يمدّدوا لحظة التحدي والصمود إلى اريخ، اختاروا أن يدفعونا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولة هي هذا الجزء المشطور من بيروت في هذا الصيف الحارق. هي بيروت الغربية. ليس من يموت هو من يموت بالمصادفة. الحيُّ حيّ بالمصادفة، إذ لم يسلم شبر واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحدة من انفجار. ولكنني لا أريد الموت حت الأنقاض. أريد الموت في الشارع.

إنتشر أمامي، فجأة، الدود الموصوف في إحدى الروايات.. دود يرتب صفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكل العظمي. دود يأتي من المجهول.. ومن التراب.. ومن الجثة ذاتها. الجثة أكل نفسها بجيش حسن التنظيم يطلع منها في لحظات. إنها صورة فرغ الإنسان من بطولته ومن لحمه، وتدفع به في عراء المصير العبثي، في العبث المطلق، في العدم الكامل. صورة جرّد الأناشيد من مديح الموت ومن الفرار إلى الفرار. أَمِنْ أجل التغلّب على بشاعة هذه الحقيقة، فَتَحَ الخيالُ البشريُّ - ساكنُ الجثة - فضاءً لخلاص الروح من هذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حلّ؟ ربما.. ربما..



.. ولأنني أعرف «سمير» منذ الطفولة، لم أذهب إلى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا بقّى منه؟ أعني ماذا بقّى من وسامة

كانت وقد الجمر حت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤثرُ البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه حُسْنُ يوسف وخَفَرٌ بلا قوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأُمّه الحسناء الطاغية. شعر كستنائي مُجَعَّد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً بعيداً وقويّ البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن أشعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الاسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي سلّل عبر الحدود لينسف حيفا. كان ذلك عشية حرب حزيران. وكان الإعلام الاسرائيلي منكباً على إعداد الذرائع لإعلان الحرب. لم نصدِّق أن «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلا بعدما طالعتنا قامتُهُ المديدة في الصحف وهو يرسف في الأغلال. حدّثني أبوه، وهو ابن عمي، كيف كانت الشرطة ُسْمِعُهُ – خلف جدران الزنزانة – أنين «سمير» حت التعذيب المتواصل. قطيعٌ من الذئاب يستفرد بغزال أسير. لقد حطم والده ماماً وهو يستمع إلى الموت البطيء المتصاعد من جسد سمير، المرفّه، المنعّم، المدلّل، الأنيق، الوسيم. ولكن

أمّه ذات الجمال الجَهُوريّ حمت أعصابها، وتوازنها النفسي، بما أيقظ في أمومتها من حاسّة الزهو أمام حوّل ابنها إلى رجل يتحدى دولة هزمت دولاً، فرفعت أحزانها الى كبرياء. حكموا على «سمير» بالسجن المؤبّد. وفي السجن استطاع أن يُمثِّل دور المتعاون مع إدارة السجن، متحملاً إهانات زملائه الفدائيين، لينفّذ خطته، ويعمل في مطبخ السجن، حيث حصل على ما يحتاجه من أدوات حادة، وعكف شهراً على قطع قضبان الزنزانة، إلى أن حانت ساعة الصفر، وتمكن من هريب بعض زملائه السجناء. أصرّ على أن يكون آخر الناجين، إلى أن انتبه الحراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النافذة ليحكموا عليه، مرة أخرى، بالسجن المؤبّد الثاني. بعد محاولة أخرى، حكم عليه بالسجن المؤبّد الثالث. وهكذا، كان على «سمير» أن يعيش ثلاثة أعمار أخرى ليتم اطلاق سراحه... وفي عملية بادل أسرى خرج «سمير» إلى نور الوطن العربي الكبير، فلم يصدّق الفارقَ بين الفكرة وصورة الفكرة، ولم يصدق التنافر بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفاضلة السجناء التقليدية بين الحرية الخارجية الشكلية وبين الحرية الداخلية المجازية المنبثقة من ماسك اليقين، وسلام النفس، والارتباط بالخارج برباط المثال. لقد ألفنا

شكوى الخارجين من حريتهم الداخلية إلى حريتنا المُشَوَّهة، وألفنا خيبتهم من كُلِّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصوّرهُمْ عن الخارج. قال لي «سمير»، حين التقيته بعد عشرين عاماً في دمشق: أهذا هو الوضع؟ ليس من أجل هذا دخلت. وليس من أجل هذا خرجت. ولكنّ ما فيه من وفاء لارتباط الإطار والفكرة حال دون ذهابه بالخيبة إلى منتهاها؛ إلى استبدال الإطار والأداة بما هو أكثر وازناً وانسجاماً. كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. ليس في وسع رجل مثلي - قال - أن يغيّر جلده، لا خوفاً من إرهاب المؤسسة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصر التوازن. فلأعتبر نفسي - سواء أكنت في هذا التنظيم أم في ذاك - خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع بعية بعضها، وهي لا شملني، إلى هذا النظام أو ذاك. كان يسيّج نفسه وتميُّزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى أن يؤدي أيُّ عديل في إطاره إلى الطعن في صدق اريخه وفي حرارة ضحيته، لأن الاعتراض - في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سُلّم قيم - قابلٌ للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا ضبطَها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسفر مثل هذا النوع من «الحوار الوطني» إلا عن اغتيال، ولم

يبدأ من راشق هذه التهم أحدُ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصل أسئلته الجارحة حول الحرية في السجن، والسجن في حرية قابلة للفساد والغاء نظام العقوبات، حتى لو مكن أحد الناطقين باسم هذه الحرية من دمير بناية على ساكنيها لتصفية حساب مع عضو في التنظيم، دون أن يفقد عضويته في القيادة، وحقّه في مثيل نظام عربي مثيلاً مدوياً في القيادة! لعلّ المحاكمة التي ستحقها الثورة هي أنها كانت خالية، وما زالت خالية، من قاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المدوية. واقتصرت المحاكمة على تتُّبع جنايات أخلاقية يرتكبها شهداء المستقبل خلال بحثهم عن متعة عابرة في سيجارة حشيش، أو امرأة غوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير»، وعلى أمثاله الخارجين من السجون الاسرائيلية، أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» عبر عنه الثورة في علاقاتها بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟. لم يتمكن من إدمان هذه التقاليد الملتبسة، لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي تطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية،

والقمة العربية، حتى وجد هذا الخطاب نفسه أسيرها لا ابنها المدلّل، منذ انقسم السؤال الديموقراطي عن السؤال القومي، وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من ضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة!.. ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية، انخرط في موجة ساهل عام جَرَفَتْنا جميعاً إلى شاطىء القدرية.

.. ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربير. لن عرفه - قالوا لي. وإذا كنت حبه - قالوا لي - صلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة.. فقد دخل في «الكوما».. دخل في الموت حيّاً..

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام السجن المؤبد بالإعدام قصفا بالطائرات. مات سمير.. مات حَبَقُ العائلة..



... لا أريد ان أموت، مشوّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة... في الشارع. أتمنى أن احترق ماماً... أن

أتفحّم، فلا يعثر دود الرواية إياه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم.

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة... لأبرر سيري في شارع لا قطة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارج الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. هبّ عليّ كما هبّ الرياح. نزل كما يهطل المطر. تحرك كما يتحرك الزلزال. لا ستطيع الارادة البشرية ان فعل حيالها شيئا كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ ما مخض عنه الخيال البشري من ابداعات الشر الخارقة، وما بلغته التكنولوجيا من قدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليوم أطول يوم في التاريخ؟ لا أحد يغسل الموتى، فليغسل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، واستخدم كل قطرة منها بحرص فائق. لكُلّ قطرة دور، أكاد أعُدُّ قطرات الماء، خمسمائة قطرة لغسل الشعر، ألفان للجسد، مائة للفم، مائة للحلاقة، عشرون لكلّ أذن، خمسون لكل إبط... و... و... لكل قطرة قطعة من الجسد.

ما الماء؟ من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ما الماء» ... كيماويا: H2O ياء، دال، اثنان، ألف. أهذا هو كل شيء؟ ولكن، ما هذه النشوة التي فتح الجلد لتوصلنا الى عيد هناك... في أرجاء الجسد وضواحيه فنقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحواس وما يحيط بها من هواء. الماء هو الهواء المقطّر الملموس المحسوس المغموس بالضوء، ولهذا حث الأنبياء شعوبهم على حب الماء «وجعلنا من الماء كل شيء حيّ». أتذكر رسالة ابن فضلان فأتقزز من ماء في وعاء كان يغسل جيشا بأكمله. لقد قطع عنا ممثلو نفايات الصليبيين الماء، بينما كان صلاح الدين الأيوبي يرسل الثلج والفواكه الى اعدائه «لعلّ قلوبهم رق» كما كان يقول. وأضحك فجأة من أغنية قول «الميّه روي العطشان»، وأتساءل: كيف عرف المغني هذا الاكتشاف المبهر؟ وفي ل الزعتر كان القتلة يصطادون الفلسطينيات على نبع الماء، على ماسورة الماء المكسورة، كما يصطاد الصيادون الغزلان العطاش. الماء القاتل، الماء المخلوط بدم العطشى الذين غامروا بحياتهم من أجل كوب ماء. الماء الذي أشعل حروب البدو في الزمان القديم. الماء الصالح لتحسين شروط

التفاوض لدى من لم يلمس الماء انسانيتهم اليابسة. الماء الذي حرك ملوك العرب وحمّلهم مشقة الاتصال الهاتفي مع الرئيس الاميركي لإجراء مقايضة رابحة: خذ الدم، وهات الماء، خذ النفط وهات الماء، خذنا وهات الماء!

... وصوت الماء ضجيج عرس، أعلى أعلى من أصوات الطائرات، صوت الماء مرايا العروق لأرض الحريّة، صوت الماء هو الحرية، صوت الماء هو الانسانية.

وما أن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عن عودة الماء الى بيروت الغربية حتى يهبّ المحاصرون الى حنفياتهم إلا نحن... نحن سُكّان هذه البناية العالية، العالية الى أعلى نداء العطش، فقد حاصرنا صاحبها قبل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجنّ هو بسلطته: السلطة على الماء. ما ان يتشاجر مع أحد المستأجرين، او مع زوجته، او مع حسابه في البنك، حتى يهبّ الى قطع الماء عنا جميعا. لذلك ربّى فينا، من زمان، هذا الصبر على الماء، ربّى فينا مدائح الماء. وعلّمنا ان نفرح بالماء، حين يتدفق ساعة، كما لم فرح به قبائل داحس، وحوّلنا الى حراس أنابيب، نتجسس منذ الفجر على صوت الماء المرتقب، وحين نسمع غرغرة

الماء نعلن العيد ونجمع ما هبنا رحمته في الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البناية كنز نجلِّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّدنا حديث الماء وحوّلنا الى عائلة واحدة، ولكن صاحب البناية يغار من شارون، وينافسه في السادية، فحين بتهج بيروت الغربية بالافراج عن الماء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا شملنا، ولأن الماء لا يصل الينا، نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. إغفر لنا ذنوبا لم نرتكبها يا أبا ربيع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. أعطنا رزقنا من الماء يا أبا ربيع. وما من سميع وما من شفيع. الى ان اضطررت الى الاستعانة باللجان الشعبية المسلحة التي أفرجت عن الماء بالقوة، فنسينا الحرب ونسينا الحصار من فرط ما فرحنا بالماء.

لي... ولمن اكتوى، مثلي، بجروح الماء، قدّم «ابن سيده» اسماء الماء؛ ونعوته، هذا غيض من فيضها:

ماء. ماءة. مويه. أمواه. مياه. ماهة، بلال. رجع. أبيض. أسود. عتيق. عدّ. كَرَع. غمر. عُلْجوم. بَلاثِق. زَغْرُب. السَعْبَر. الطَيْس. الطيسل. الرَيْب. الجوار. الخِضْرم. القَلَيْدُم.

العُبام. الهُر. الهرهور. الهرهار. الهراهر. اليهمور. الزمزم. الزُمزوم. الزمزام. القاموس. الجُراجر. اليهري. الضحضاح. الكوثر. الأهيغ. الجبجاب. الهُلاهل. الطرطبيس. البثق. الحائر. المدّ. الحفل. الأزّيَب. الثمَد. المشفوه. المضفوف. الرقراق. الرق. الفراش. الطَلْ. الضّهْل. السمل. البرْضُ. النطفة. الرزغ. الصبّة. الشول. الرفض. الخبط. الصبابة. القصملة. الصلاصل. الضلضل. الذفاف. الذُف. الذُفف. القطرب. الزرجون. المزّة. المجّة. النقمة. النغبة. المكلة. النشفة. الغرفة. القرحة. الحسوة. المزعة. السُؤر. الوشل. اللزب. الجحقة. الهلال. الرشف. الطملة. الدعث. الحيل. الطلح. النُقَاح. الزلال. الفرات. الرضاب. الفضيض. الشريب. الشروب. الهجهج. المُخْضم. الزعاق. الذعاق. النمير. المسوس. الباضع. الغريض. البسر. الحنبريت. القراح. وغيرها... وغيرها... وغيرها.



... أهبط على الدرج الحجري الطويل وسط الزجاج المهشم، لا أعرف إن كانت الطوابق السفلى قد أصيبت. وأتساءل: ماذا

أفعل لو انقضّت عليّ جثة؟ كيف سأحملها ولمن أنقلها ؟ ماذا أفعل لو لم أجد أحداً أتحدث اليه؟ لمن أنقل كلامي ومن يشاطرني صمتي؟ سأصفّر لحنا.. مطلع أغنية من أغاني بيروت المتفجرة من هذه الحرب. لم كن بيروت للغناء، ولم يستخدم الشعر اللبناني اسم بيروت القابل للاستعمال في جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة... وماذا أفعل لو لم أجد قطة أداعبها ؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا أستاذي - هكذا كنت أخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادئ، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل من منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفيا في اوروبا ، ثم أقام في شقة ابنته. كنت ازوره يوميا وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعرا مجددا ، ولعله أوّل من كتب قصيدة النثر ثم وقف عن كتابة الشعر ليتفرغ، كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والادارة والموزِّع والمصحح. لم عادل شكواه

من وحشية القصف غير شكواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس اليّ والى أحفاده، ويتقبّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه الحاح الطائرات المغيرة: كفى، ماذا ريدون منا؟ نحن نعرف أنكم أقوى منا، ونعرف أنكم متلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا ريدون منا؟ كفى! كانت زوجته زجره: دعهم وشأنهم... عايزين يضربوا... وانت مالك - قولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن خجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين... وكنت أمازحه لأقطع يار الحرج المكهرب: حقا، لماذا عرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا ضحك، كانت في داخلها التربوي المعادي لما هو خارج طائفتها حتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الاسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير الجميل. كانت عتقد ان هذه الحرب هي مجرد طوع اسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين، وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها الى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الاسرائيليون من حيث جاءوا دون ان يحصلوا على أيّ أجر. كان في وسعك ان جادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون ان

نفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس، يا سيدة لبنان احفظيه لنا! ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الاحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر»، ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب، فأمام مثل هذا الانغلاق الصلب والتشكُّل النهائي توقف محاولات الاقناع. وعبثا حاول الاستاذ، ذو الماضي العلماني، ان يقنعها بأن الاسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وان صاروخا واحدا من طائراتهم سيحولنا، نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة الى كفتة! وهي، هي المحصنة بقناعتها النهائية، حب المناقشة العقيمة، ويسألني الاستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنب الاستفزاز وما قد غدقه عليّ من باطن، قائلا: ليست لك مشكلتي، فتحرك الماء الراكد: اذن، ما هي مشكلتك؟

أناور قائلا: مشكلتي هي ان أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تهرب مما نحن فيه. أنت عرف ان لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت عرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا عرف؟

أقول: أعرف أن للماء لونا وطعما ورائحة.

تقول: لماذا لا ذهبون الى بلادكم وتنتهي المشكلة؟

أقول: هكذا. ببساطة. نعود الى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟

تقول: نعم.

أقول: ألا عرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب الى بلادنا؟

تقول: إذن، حاربوهم.

أقول: ها نحن نحاربهم، ألسنا في حالة حرب؟

تقول: أنتم حاربون لتبقوا هنا، ولا حاربون لتعودوا.

أقول: كي نعود الى هناك، لا بد لنا من ان نكون في مكان ما، فالعائد - إن عاد - لا يعود من عدم.

تقول: لماذا لا قيمون في البلاد العربية وتحاربون منها؟

أقول: قالوا لنا ما قولينه الآن لنا، طردونا، وها نحن نقاتل

هنا مع اللبنانيين دفاعا عن بيروت، ودفاعا عن وجودنا.

تقول: حربكم بلا هدف ولا وصل الى نتيجة.

أقول: ربما لن وصل الى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.

تقول: عليكم ان خرجوا من هنا.

أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وها هم يمنعوننا من الخروج. ولكن، ألا يعنيك الى أين سنخرج؟

تقول: لا يعنيني.

وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يا لبنان، ارتفع من اذاعتين متحاربتين.

قلت: ألا حبين هذه الأغنية؟

قالت: أحبها. وأنت؟

قلت: أحبها كثيرا، وتوجعني.

قالت: بأي حق ُحبّها؟ ألا رى الى أيّ حد ماديتم.

قلت: انها أغنية جميلة. ولبنان جميل، وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن حبّ القدس.

قلت: أحب القدس، والاسرائيليون يحبون القدس ويغنون لها، وأنت حبين القدس، وفيروز غني للقدس... وريكاردوس أحب القدس... و...

قالت: لا. أنا لا أحب القدس.



الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمة من فولاذ. لمن أقدم صمتي البريء، صار الشارع أعرض. أمشي على مهل، وأمشي على مهل... وأمشي على مهل كي لا خطئني طائرة. يفتح العدم أشداقه ولا يبتلعني، أسير بلا هدف كأنني أتعرف على هذه الشوارع للمرة الأولى، وكأنني أسير عليها للمرة الأخيرة. وداع من طرف واحد، أنا المشيِّع والمشيَّع. لو قطة... لو أجد قطة، لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى. لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صوت. لا صمت. لا حرب. لا سلام. لا حياة. لا موت. لا نعم. لا لا. زوج الموج طحلب الصخرة على شاطىء بعيد وخرجت للتو، من هذا الزواج الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنا. لم أعرف من أنا. لم أعرف ما اسمي، ولا اسم هذا المكان. لم أعرف أن في وسعي أن امتشق ضلعا من ضلوعي

لأجد فيه حوارا لهذا السكون المطلق. ما اسمي، من سمّاني، من سيسميني: آدم!



« ... ثم إن الله خلق بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة، سحابا رقيقا هو الغمام الذي قال فيه النبيّ، صلى الله عليه وسلّم، وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما حته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء.

قلتُ هذا فيه نظر، لأنه قد قدم أن أوّل ما خلق الله عالى القلم وقال له: أكتب... فجرى في لك الساعة، ثم ذكر أن الله خلق بعد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحابا. ومن المعلوم أن الكتابة لا بد فيها من آلة يكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يكتب فيه، وهو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانيا للقلم، والله أعلم... ويحتمل أن يكون ُرك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحّاك عن ابن مزاحم عن ابن عباس: أوّل ما خلق الله العرش، فاستوى عليه، وقال آخرون: خلق الله الماء قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء.

وقيل: ان الذي خلق الله عالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خلق قبل العرش أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وقد قيل: إن الماء كان على متن الريح حين خلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن ابن عباس، فإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل ان يخلق شيئا بألف عام.

واختلفوا أيضا في اليوم الذي ابتدأ الله عالى فيه خلق السموات والأرض. وقال عبدالله بن سلام، وكعب، والضحّاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد. وقال محمد بن اسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا ايضا فيما خلق كل يوم، فقال عبدالله بن سلام: إن الله عالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد

والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يومي الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة، فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي قوم فيها الساعة.

وقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه: ان الله عالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من حت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عباس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعود: ان الله عزّ وجلّ كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئا مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة، ثم فَتَقَها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين، فخلق الارض على حوت، و الحوت النون الذي يكره عالى في القرآن في قوله: «ن والقلم». والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصخرة في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لقمان ليست في السماء

ولا في الارض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الارض، فأرسى عليها الجبال فقرّت.

قال ابن عباس والضحّاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كل يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

... واختلف العلماء في الليل والنهار، أيهما خُلق قبل صاحبه، بعضهم يقول: ان الليل خلق قبل النهار، وقال آخرون: كان النهار قبل الليل، واستدلوا بأن الله عالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء به كل شيء خلقه حتى خلق الليل. قال ابن مسعود: ان ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عمير الحارثي: كنت عند عليّ فسأله ابن الكوّاء عن السواد الذي في القمر، فقال: ذلك آيةٌ محيت. وروى أبو جعفر حديثا طويلا عن ابن عباس عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكل عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من الملائكة، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء

والأرض، فذلك كسوفهما، ثم ان الملائكة يخرجونهما فذلك جليتهما من الكسوف...»

[ابن الأثير - الكامل في التاريخ]



... أسير وسط الشارع ماما، ولا يهمني أن أعرف الى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أخرج من شيء ولا أدخل في شيء، ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها...

لم نفهم لبنان، لم نفهم لبنان أبدا، ولن نفهم لبنان، لن نفهم لبنان الى الأبد.

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيّلة عيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة، بل لأنها في حاجة الى ان ضع للخيال موطىء قدم. شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو، والحوار، ونختار الممثلين والكاميرا والمنتج والمخرج، ونوزّع الأدوار دون

أن ننتبه الى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين نرى الى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفق للصورة ناسين أنها من صناعتنا. وما أن يتحول الانتاج الى إعادة انتاج حتى نصدّق أن «الآخر» هو الذي يشير الينا.

هل كان في مقدورنا ان نرى بشكل آخر غير ما يسهّل علينا أليب الواقع على ماديته؟ بنيتنا التحتية هي المعنويات. ماركس واقفا على رأسه، معيدا هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكافيللي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

ألأن لبنان هو هكذا، يُستعصى على الدراسة والادراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورط بمحاولة الإجابة، بقدر ما أزجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُنّاعه، لا مُدمِّروه ولا بُناته، لا حلفاؤه ولا اصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون. ألأن الواقع المفكك لا يدرك، أم لأن الوعي المفكك لا يدرك...؟

ولا أريد جوابا صحيحا، بقدر ما أريد سؤالا صحيحا.

لم نر من لبنان غير اللغة التي شيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها الى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبدالناصر الذي خاطب في سكان هذه القارة المتحولة الى فسيفساء حاسّة الغياب المرهفة، وسمىّ من النهر ضفافا خفي ما في النهر من وحل، وطوائف، ونفايات صليبيين كانت جدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب، الى ان انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو...

أن نرى ما ريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شرط حياتنا الى هذه الرؤية، المتحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها الى وعد راجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو...

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تحول فيه العزلة الى بوصلة صواب، والأقلية - المترسبة من مشروع الأكثرية - الى هداية.

فيديو...

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا حيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، الى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد ،ُجري أثنا ءه الأنظمة عملية ثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الاقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو...

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أخته حت مسلم، وإلا فبنت أخته، لا يصلح حليفاً حقيقياً ضد الانجليز الذين يحاصرون عكا.

وفيديو...

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة ضمن نهاية الحروب، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع، ونقله من موضوع دعوة الى موضوع انشقاق وفتنة.

وفيديو...

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والافرنج، في هذه الشروط المعاصرة، لا يرمي الى ضمان احتفاظ العرب بما

بقّى لهم من قلاع ومدى، لمواصلة الصراع، بل يرمي الى منح العدو هدنة وفر له امكانية أسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء الى قاعدة.

وفيديو...

لأن هذا الضلع من الجزيرة، الضلع المكسور، مطلوب للمحاكمة بتهمة الاعتداء على راحة العروش بترويج كلمات ممنوعة التداول في الاطراف العربية: امرأة، معارضة، كتاب، أحزاب، برلمان، حرية، خنزير، ديمقراطية، شيوعية، علمانية.

وفيديو...

لأن فلسطين تطور من وطن الى شعار ليس للتطبيق، بل للتعليق على الأحداث، ولتزويق خطاب الانقلاب، وحلّ الأحزاب ومنع زراعة القمح، واستبدال الكدح بالربح السريع، والى طوير صناعة الانقلاب، الثقيلة منها والخفيفة، الى ان يعقد القران على آخر حفيدات الخليفة...

وعلى الحدود، علن الحرب على الحدود.

لذلك، كان علينا ألا نرى من لبنان غير ما رأيناه من صناعة الأمل، وجه البطولة الساطع المتفجر من المدافعين عن

يأسهم العظيم أمام أمل الصدفة المنغلقة ومن هجوم بحر الصحراء على جزيرة الروح الصغيرة. أسماء الأمكنة ضيق وتضيق وتنكمش، من الوطن الممتد من المحيط الى الخليج الى ما هو أضيق: شرم الشيخ، جبل الشيخ، الضفة الغربية لنهر الاردن، مدرسة البنات في نابلس، حارة السجعية في غزة، غاليري سمعان، شارع أسعد الاسعد في بيروت، فندق طابا في سيناء، بئر العبد هنا، مخيم شاتيلا، مستديرة المطار، الى متراس أخير كون بعده الصحراء أو البحر...



لتتقدّسْ أيديكم، أيها القابضون على الحجر الأخير وعلى الجمر الأخير.

لتتقدّسْ أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة.

وليتحول ظلكم المحروق الى رماد عنقاء يجدِّدكم لتبنوا منه ومنكم مغارة لطفل يولد.

ولتنبت اسماؤك حبقاً وريحاناً على سهل يمتد من خطاكم، سهل لتهتدي حبّة القمح الى رابها المسروق.

أيها المشرقون فينا أقمارا يعجنها دم سخيّ ينادي حُرّاس القلعة الهاربين الى صفوف الأعداء، فلا يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!

من آثار خُطاكم، الخطى التي لا خطو إلا حت او فوق، سنلمّ الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور المعدنية سندلُّ القبائل على حدود اسمائها.

... وحدكم!

فاحموا حدّ النشيد، كما حمون، مما يثلم القلب في هذه البريّة الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلُّ من النافذة...

... وحدكم!

البحر من ورائكم، والبحر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلا هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

... وحدكم!

فارفعوا مائة مدينة اخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي.

دلّونا علينا لنفرغ ما فينا من حمولة جثث ليست لنا، ومن ثمر فاسد دلّى من لغة ليست لنا، ولنتابع المشي على خطانا لا على خطى قيصر... لصّ الهوية والطريق...

لم يبق لنا من موت إلا موت الموت...

وحدكم...

تحمون سلالة هذا الساحل من اختلاط المعاني، فلا يكون التاريخ سلس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتقدّس أيديكم أيها القابضون على الحجر الأخير وعلى الجمر الأخير.



- وداعا سيدي.
- إلى اين؟
- إلى الجنون.
- أي جنون؟
- أي جنون... فقد صرت كلاماً...



... مسّني ما مسّني من حماسة. وواصل الفضاء المحتل، والبحر المحتل، وجبل الصنوبر المحتل قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سِيَرَ خروج لا نتهي. لم يعد لي وطن، ولم يعد لي جسد. وواصل القصف قصف أناشيد المدائح وحوارات الموت المتحركة في دم كالضوء يحرق الاسئلة الباردة. عمّ أبحث؟ عن امتلاء بالبارود، عن خمة لغضب النفس. دخل الصواريخ في مسام جلدي وتخرج

سالمة. ما أقواها! ولا أُحسُّ بالجحيم الذي يوزعه الهواء طالما صرت أَتَنَفَّسُ الجحيم وأتصبَّبُ جهنم. وأريد ان أنشد. نعم، أريد ان أنشد لهذا النهار المحروق، أريد أن أنشد. أريد أن أجد لغة حول اللغة الى حديد للروح، الى لغة مضادة لهذه الطائرات، الحشرات الفضية اللامعة، أريد أن أنشد، أريد لغة سندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوة الغلبة على هذه العزلة الكونية، وأمشي...

أمشي لأراني ماشيا، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي. في منتصف الشارع، منتصف الشارع ماماً، نبح عليّ الوحوش الطائرة. بصق نارها ولا أبالي. لا أسمع إلا وقع خطاي على الاسفلت المحفور. ولا أرى أحداً. عمّ أبحث؟ لا شيء. لعلّ عناد التحدي الذي يخفي خوف الوحدة، او الخشية من الموت بين الانقاض هو ما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل، في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حدّ ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام، وضوضاء التجارة خفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت

من مدينة الى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالـة. كانت طبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا نتبه الى ذاتها ، كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة حرية. وكانت جدرانها حمل موسوعة العالم الحديث. وكانت مصنع ملصقات. وقد كون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات الى مستوى الجريدة اليومية. ولعلّ قدراتها التعبيرية المتشكلة من نوع، وموت، وفوضى، وحرية، وغربة، وهجرة، وشعوب، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير الى خصوصية. وجوه على الجدران، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة، موت يعيد انتاج موته، شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه الى ان يزيحه شهيد جديد او مطر. وشعارات محو شعارات، تبدل، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية، كل ما يحدث في العالم يحدث هنا ، انعكاسا ارة، ونموذجا ارة، وقد يتشاجر مثقفان في مقهى باريسي، فينقلب شجارهما الكلامي الى اشتباك مُسلّح هنا ، لأن على بيروت

ان تضامن او تزامن مع كل جديد، ومع كل قديم يتجدد، ومع كل حركة جديدة ونظرية جديدة. سينما ثورات سريعة الدوران. فيديو للتطبيق المباشر. القائد الجديد او النجم الجديد، في أي مجال، مرشح ليكون قائدها او نجمها. طفح جدرانها بالصور والكلمات، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل. لذا، فإن أعمار النجوم والقادة هنا قصيرة، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر، فالجمهور ليس هنا، بل لأن السباق يجري على النمط الاميركي ولو كانت اهدافه معادية لأميركا. فهنا مندوبون دائمون لأيّ وعي جديد، ولأية نغمة جديدة، ولأية طفرة جديدة، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلا على الافراط في اليسارية، الى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلا على الأصالة، الى لقف كل اشارة ضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق، دليلا على هبوب ريح الشرق. هنا محطة حويل كونية لكل خروج عن السياق، وتعميمه الى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه، ومائه، ودفن قتلاه...



أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد، أتذكّر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمش فيه أحد، وأتذكّر ان أحداً لم يكن

معي قال لي:

- دَعْكَ من هذا الحوار. وتعال معي.

- الى أين؟

- لترى هذا الرجل.

- ماذا يفعل هذا الرجل؟

- يذهب الى بيته.

- ولكنه يمشي الى الأمام ويعود الى الورا ء.

- لك طريقته في المشي.

- إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

- راقبه جيدا. عُدّ خطواته...

واحدة، اثنتان، أربع، سبع، سع الى الأمام... واحدة، اثنتان، ثلاث، سبع، ثمانٍ الى الورا ء...

- ماذا يعني ذلك؟

- انه يمشي، في هذه الطريقة وحدها يعرف الطريق الى البيت: عشر خطوات الى الأمام وتسع خطوات الى الورا ء، أي انه يتقدم خطوة.

– واذا سرح ذهنه، وأخطأ في العدّ؟

– عندها لا يصل الى بيته.

– هل عني شيئا؟

– لا أعني شيئا...



... قريبا من فندق «الكفاليبه» نظرت الى ساعتي. الثامنة. هل صحا الشاعر «ي» من النوم؟ من يستطيع النوم حت هذه القطعان من الطائرات؟ أثار فضولي ان اعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغة لهذه اللغة. و«ي» هو الشاعر صاحب القصيدة اليومية، المرئية، المتأنية، القادرة على التقاط فاصيل دالة على جوهر انساني. هو الشاعر القادر على حريك الفرح من الركام وعلى ايقاظ الدهش. وهو حين يكتب يغنيني عن الكتابة، لأنه يقول نيابة عنا ما نحسّ بالرغبة في قوله، يملأني بشجن يوقظ صفاؤه في مادة الفرح. وما دام هذا الشعر يكتب فلن أجد دليلا ملموسا على مأزق الشعر. وهو باختصار شاعري. التقيتُه أول مرة في بغداد، وسرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشرب ما يسره

المائدة من كحول لا تجانس الا لتتشاكس، فهو لا يعترف بفروق الكحول. الكحول هي الكحول. ما الفرق: بيرة، ويسكي، نبيذ، عرق، جنّ، كُلها ُجنِّن. وحين كان يوصلني في آخر الليل بسيارته الى فندق «بغداد»، كان يحاول دفع السيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا استغاثتنا الصاحية. قال ليهدِّئ من روعنا: لا خافوا، فأنا الآن موظف في دائرة الريّ. صحنا: الري؟ قال: الريّ، نعم، الريّ. واخيرا انتقل من دائرة الريّ في بغداد الى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أمسيات مشتركة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ اسابيع، في احدى قواعد المقاتلين. رأيته ليلة أمس قرب فندق بلازا. عرّف عليّ وسط الظلام الكحلي بواسطة مصباح يدوي، فصرخ بي: كيف سير وحدك بلا حراسة؟ قلت: ومتى سرت بحراسة. قال: لماذا قف هنا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب الى غرفة العمليات.

أنتظر الشاعر في ردهة الفندق. ولكن، لماذا يطلع الحلزون في وجهي. حلزون طويل. حلزون لا يكف عن استعراض رخاوته. يلعب على المقاعد والجدران، يدلق لعابه الأخضر على فتاة عزف على البيانو. حلزون يبكي. حلزون يضحك.

حلزون يسكر. يدخل الشاشة. يخرج من الشاشة. يعلّق بصره الزائغ على اللاشيء. حلزون لا ينظر، يتهاوى، يتمايل، يتأوه، يتنهد، يتخلّع، يتسكّع. حلزون يسير على قدمين من مطاط يتأرجح. ولماذا يطلع الحلزون في وجهي هذا الصباح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!



... ينزل الشاعر من غرفته متكئا على جرادة...

أوف... أهذه ايضا؟! ما الذي جاء بي الى هذا المكان؟! نتعانق. أهزّ على كتفيه لأنفض عنه سموات النعاس. كيف حالك؟ متشائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقول يا أخي. لم يتوقف القصف ثانية واحدة. انهم يحرثون المدينة. أين كنت؟ في شقتي. مجنون. مجنون يا أخي. كيف نام هناك؟ غدا سأنام هنا. ولكن أينقصنا أن يُسفر القصف عن حلزون وجرادة؟ ماذا عني؟ لا أعني شيئا، عشر خطوات الى الأمام، وتسع خطوات الى الوراء. النتيجة خطوة الى الأمام. حسنا! هذا حسن...

حطت جرادة أخرى، خائفة، على حضني، ارتدت عفّة الخوف

من الطائرات لتحتك بما يُحكّ. قلت لها مازحا وناصحا: هذا يوم لا نهاية له. عندهم ألف طائرة ستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، واذا واصلت الرد على كل غارة بهذا الاحتكاك، فاني سأجف، سأصير رجلا مثمودا! والتفتُّ الى الشاعر: قل لي، لماذا ندلع شهوات الفتيات في اسوأ الحالات؟ أهذا هو وقت الحب؟ ليس هذا وقت الحب، انه وقت الشهوة الخاطفة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العسل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت حته: يا أخي مش معقول، هذا مش معقول. يا أخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها. وتكوم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على خليص العبارة من أتأة «ي». نضحك. كان علينا ان نضحك ونقهقه الى حد أزعجنا معه فتاة البيانو. قلنا لها: ليس هذا وقت البيانو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات، وهذا وقت الحلزون.

هل كتبان؟ سألنا «ف»...

«ي» يكتب يوميا. وقرأ لنا احدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: انـي اختزن حتى الاختناق، وأثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيدة... ما جدواها بعدما نتهي الحرب. ولكنني أصرخ في لحظة لا يصل فيها الصراخ. ويبدو لي ان على اللغة ألا زج بنفسها في معركة أصوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أفضل.

- ولكن ماذا كتب؟

قلت: أتأتىء صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا... لا... لا مَفَرٌّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناعُ

لا اخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاعُ

لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ

ولا الأمام ولا الوراءُ

حاصر حصارك... لا مَفَرٌّ

سقطت ذراعك فالتقطها

واضرب عدوّك... لا مَفَرٌّ

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرٌّ

حُرٌّ

وحُرٌّ.

قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة

فاضرب بها. اضرب عدوك... لا مَفَرٌّ

أشلاؤنا أسماؤنا. أسماؤنا أشلاؤنا

حاصر حصارك بالجنون

وبالجنون

وبالجنون

ذهب الذين حبهم، ذهبوا

فإمّا أن كون

أو لا كون

سقط القناعُ عن القناع

سقط القناعُ، ولا أحد

إلاّك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيان

فاجعل كُلَّ متراس بَلَد

لا... لا أحد

سقط القناعُ

عرب أطاعوا رومهم

عرب وباعوا روحهم

عرب... وضاعوا

سقط القناعُ

سقط القناعُ

... سألنا «ف»: الى أين ستخرجان؟

قال «ي»: الى عدن...

– وأنت؟ سألني

قلت: لا أعرف...

صمت. صمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحدا في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسار ونحن نستعدُّ لاستيعاب عملية انتقال الواقع، برمته، الى ذكريات تآلف على مرأى منا. ونحن نبتعد لنشهد صيرورتنا الى ذكريات. نحن الذكريات. ابتدا ءاً من هذه اللحظة سيتذكر بعضنا البعض كما نتذكر عالما بعيدا لاشى في زرقة صارت أشد زرقة مما كانت عليه. سنفترق في أوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعرف الحقيقة: سنخرج. ونعرف قسوة أقسى لا يجرؤ أحد على أن يُرى وهو يراها: ان الناس معنا لأننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أعرف الى أين اخرج. ولأنني لا أعرف الى أين أخرج، فلن أخرج.

وسألت «ف»: وأنت؟

قال: أنا باق أنا لبناني وهذه بلادي. الى أين أذهب؟

خجلتُ من سؤالي، ومن فرط ما صارت بيروت نشيدي... ونشيد من لا وطن له! ...خجلت من شدة التباس الفكرة.

«... في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر،

فاجتمعت إليه جموع كثيرة حتى انه دخل السفينة وجلس. والجمع كُلُّه وقف على الشاطىء فكلمهم كثيراً بأمثال قائلاً هوذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم كن له ربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أصل جفّ. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرا...»

«... ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا. واذا امرأة كنعانية خارجة من لك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جدا. فلم يُجبها بكلمة، فتقدم لاميذه وطلبوا اليه قائلين اصرفها لأنها صيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت اسرائيل الضالّة. فأتت ومجّدت له قائلة: يا سيّد أعنّي. فأجاب وقال: ليس حسنا أن يُؤخذ خبز البنين ويُطرح للكلاب. فقالت نعم يا سيّد والكلاب أيضا أكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها. حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة عظيمٌ

ايمانك ليكن لك ما ريدين. فشُفيت ابنتها من لك الساعة». (انجيل متّي).



... وفي فندق الكومودور، معقل الصحافيين الأجانب، يستجوبني كاتب صحافي اميركي: ماذا كتب أيها الشاعر في الحرب؟

- أكتُب صمتي.
- هل عني أن الكلام للمدافع؟
- نعم صوتها أعلى من أي صوت.
- ماذا فعل إذن؟
- أدعو إلى الصمود.
- وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟
- لا. المهم أن نبقى. بقاؤنا انتصار.
- وماذا بعد ذلك؟
- سيبدأ زمن جديد.

- ومتى عود الى كتابة الشعر؟

- حين سكت المدافع قليلا. حين أفجر صمتي المليء بجميع هذه الأصوات. حين أجد لغتي الملائمة.

- أليس لك من دور؟

- لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

... لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائما لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أقلامهم السامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: ما لكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتّاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس قصيرهم أو هروبهم هو الذي يهيل البنايات على سكانها. وفي أسوأ الأحوال ليست كتابتكم هذه أدبا. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأحوال. كلا - يقولون: هذا هو المحك الأول والأخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن ولد القصيدة الآن، وإما أن حرم من حقها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أذنتم لهوميروس أن يكتب الالياذة والأوديسة؟ ولماذا سمحتم لاسخيليوس ويوربيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً - أيها الكتّاب - فمن يستطيع الكتابة الآن

فليكتب. ومن يستطيع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أذنتم لي بأن أُبدي رأيي - دون اتهام - فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاشى والباحثين عن الماء والخبز والملجأ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم، أو فاصمتوا إذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب وفي وسعنا أن نقدم خدمات أخرى للناس، فإن نكة من الماء ساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الانسانية لا الجمالية الابداعية. فلتوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر ايقاعه قليلا؟ ألأنّ الناقد لم يُعجَب برواياتكم وقصائدكم ضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن طرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي بمفهوم الحدث، معزولا عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث حرث الطائرات أجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة ُعادل قوة الغارة أو قلب موازين القوى على الأقـل. إذا لم ولد القصيدة «الآن» فمتى ولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هي قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقد يحتاج إلى جواب مُرَكَّب كأن يُتاح لنا القول ان القصيدة وُلـد الآن: ولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا صل إلى الحنجرة والورق.

سؤال بريء يحتاج إلى جواب بريء لولا أنه مليء - في هذه الجلسة - بالرغبة في اغتيال الشاعر الذي جرؤ على الاعلان بأنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتزع من زمن الغارات هذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيته من اريـخ كتابته الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيها كل شيء عن الكلام، لحظة صوغ فيها الملحمة الشعبية اريخها وابداعها الجماعي. بيروت هي الكتابة الابداعية المثيرة. شعراؤها الحقيقيون ومنشدوها هم مقاتلوها وناسها الذين لا يحتاجون إلى رفيه وتشجيع

على عود مقطوع الأوتـار. هم التأسيس الحقيقي لكتابة ستبحث طويلا طويلا عن المعادل اللغوي لبطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف ستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجة إلى كسل، أن تبلور وتتشكّل في أوج معركة لها هذا الايقاع الصاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي - وكُلّ الشعر قليدي في هذه اللحظة - أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفون! فسؤال الحياة والـموت المهيمن الآن، سؤال الارادة التي دفع بأسلحتها كلها في هذه الساحة، سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والألوهي، أهم من السؤال الأخلاقي عن دور الشعر والشاعر. ومن اللائق أن نحترم الرهبة التي نشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الوجود الانساني من ضفة إلى أخرى، ومن طور إلى طور، ومن اللائق أن يعرف الشعر القديم كيف يصمت، في خشوع، أمام حضرة هذا المولود الجديد. وإذا كان من الضروري أن يتحول المثقفون أو بعضهم إلى قناصة، فليحاولوا قنص مفاهيمهم القديمة وأسئلتهم القديمة وأخلاقهم القديمة. نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف. نحن نولد ماماً أو نموت ماماً.

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولا بسؤال آخر: أين الرسامون؟

قلت: أيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رسّامو بيروت.

قلت: ماذا ريد منهم؟

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة.

قلت: ماذا دهاك يا فايز؟ ألا رى سقوط الجدران؟



... لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهو، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببصاق مُتوّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملوّن، يرشيني بابتسامة حاقنة، ويغمد خنجراً في نخاعي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليّ رائحة العرق والعرق، ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، ليدس لي قبرا حت الحذاء؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يشرئبّ إلى المقعد والجدار، ليطلَّ على قلبي ويسرق حزن الليمون، ويهربه إلى قبطان سفينة لا صل، ظنّها سفينة نوح ولم صل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزدانا بحدوة حصان قتيل ظنّها وسام الشرف؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مدججاً بمسدسين: واحد لقتلي، وواحد لقفاه الجشع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟



احترق المكتب. قذيفة بحرية جعلته مخزنا للفحم. احترق قبل وصولنا بساعات. أين نجد مكاناً آخر لنتابع الثرثرة، مهنتنا الخالدة في الحرب وفي الهدنة: الثرثرة. أين نتابعها: نخرج، أم لا نخرج؟ فقد حسب المثقفون المنصهرون في

ورشة الصمود الرائعة انصهاراً مدهشاً أن هذا السؤال هو سؤالهم. وحسبوا أن لهم حق الفيتو على القرار السياسي. وكان بعضهم يعتقد أن نشرة «المعركة» هي التي ستحدِّد مصير المعركة. وقرروا أن هذا المنبر الشجاع هو الذي سيشهد للتاريخ ان المثقفين هم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!.

الساعة الحادية عشرة، وعشرين ألف قذيفة، وثلاثين ثانية. خرجنا من المكتب المحترق إلى فضاء مشتعل. السماء عانق الأرض عناقاً دُخانياً. تدلّى مثقلة بالرصاص المصهور، برماديّ داكن لا يفتح انغلاقه العدميّ سوى لون برتقالي ُبَوِّلُه الطائرات الفضية المائلة الى بياض الوهج. طائرات رشيقة، خفيفة، ثب على هواء آمن كأن فيه أخاديد.

قال «ز»: هيّا بنا. قلت: إلى أين؟ قال: نبحث عن أيّ شيء، عن غداء مثلاً، ما الحالة؟ ... زفت. شروط الخروج مُذلّة، ونحن نناور، نحاول أن نشتري الوقت، بأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمدافع مضادة للطائرات نفذت ذخيرتها، ببطولة شباب حيّروا العلم العسكري وحيّروا الجنون، إلى متى؟ إلى أن يحدث شيء ما لن يحدث. لم يحدث غيير، ما زلنا وحدنا. هل

سيدخلون بيروت؟ لن يدخلوا بيروت. سيتكبدون خسائر لا يتحملون نتائجها. ولكنهم يحاولون قضم أطراف المدينة. حاولوا عند المتحف وفشلوا. معنويات الشباب عالية، عالية جداً. انهم أشباه شياطين. يائسون من النجدة. يائسون من حرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، لذلك يقاتلون بجنون. هل يبلغهم حديث الخروج؟ نعم، يبلغهم ولا يصدقون. يقولون: لك مناورة، ويقاتلون. ويعرفون أن هذا الصمت الذي يتوّج العالم يعطيهم منصّة الكلام. دمهم، وحده، هو الذي يتكلّم في هذا الزمن. وماذا سنكتب في «المعركة» أمام حديث المفاوضات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال.

بيروت من الخارج: محاصرة بالدبابات الاسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي، بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت عطش.

ولكن بيروت الداخل، بيروت من الداخل، عد حقيقتها الأخرى، متلك ارادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على اشراق معانيها: عاصمة الأمل العربي..

بشعار «انقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل كالسم الناعم، يُراد لهذا الأمل أن ينتحر في مسّادة عربية منقولة عن الذاهبين الى انتحارهم في أوج انتصارهم. والشرط الوحيد الذي يضعه مبتكرو لفظة «الانقاذ» هو: الاستسلام. استسلام اريخ من المعاني المسقيّة بالدم. استسلام كامل الغضب. استسلام كل السلاح. استسلام بلا كاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازا مضادا، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى اعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نُشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدد دورة الدم في عروق الأجيال كلها إذ لا خيار لنا إلا الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني جريدُنا منه جريدنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في ايقاظ القارة العربية النائمة حت قمع الأنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطىء محيطين. وهو الأفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود.

هكذا... هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا كون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..

... وهكذا كنا نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا ردد: الكلام إياه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: مع الصمود. قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟



صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأنه أقوى، بل لأنه

مختلف وبعيد. صوت يسرق المكان ويهرول، صوت يقصُّ الفضاء ويُحدث جويفاً في الضوء.

هيا بنا... لم نعبر طريق الروشة منذ أيام. شارع عريض مهجور يتوسع من غياب الخطى، كأنه ملكية خاصة للبحر. بنايات دخن. نار هبط من أعلى إلى أسفل. حريق مقلوب. نوافذ شيخ وتتساقط على مهل. وتصل إلينا استغاثات الطوابق العليا واضحة جارحة. ناس حاصرهم النار والإنهيارات التدريجية الخارجة من هول الصدمة الأولى، رجال الاسعاف المدني كانوا هناك، يحاولون انقاذ اللحم البشري المعجون بالحديد والاسمنت والزجاج.

لا أستطيع أن أشيح بوجهي عن مشهد المكان المجروح. للدم على الأرض وعلى الجدران جاذبيّةُ الوحشية. لا أستطيع أن أنصرف ولا أستطيع أن أخمد إحساس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأن الطائرات ستعود لتقصف هذا الحشد الشهيّ. بلّل وجهي ماء ساخن يبعثه احتقان الغيظ، شدّني صاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغاروا من جديد. من جديد أغاروا. ما هذا اليوم؟ هل هو أطول يوم في التاريخ؟ نظرت إلى البناية المقابلة، نظرت إلى مكتبي الصغير نظرة وداع أخير.



موجة من بحر، كنت أتابعها من هذه الشرفة، وهي نكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشّاق..

موجة من بحر حمل بعض الرسائل الأخيرة، وتعود إلى الشمال الغربي الأزرق، والجنوب الغربي اللازوردي، رجع إلى شواطئها وقد طرّزت انكساراتها بالقطن الأبيض.

موجة من بحر، أعرفها، ألاحقها بالشجن، وأراها وهي تعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تعب فترتاح على شواطىء جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن كون أنا. وأنا، لن أكون موجة من بحر..



كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد بالتلاشي منذ البداية. ماذا

نُهديك؟ نباتات وود. زهور ونباتات. حوّلتُهُ إلى ما يشبه العش. أردتُ له أن يكون نصاً من نصوص المجلة. حروف بُنيّة مطبوعة على ورق أصفر ويُطلُّ على بحر. أردت له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردت له شبها بالقصيدة. ولكن، لا نكاد نُعلِّق لوحة حتى نفجر سيارة مُفخّخة حت، وتطيح بكل رتيب. وما كدت أسند رأسي على مرفق يدي اليسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب، لقد رفعني دويّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدت وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولت العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد. ردّ الحارس الفتي على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا فعل؟ قلت. قال: أطلق النار. قلت: على من طلق النار، وفي أي اتجاه؟ لعلّ أحداً لم يسأله هذا السؤال من قبل، لذلك استهجنه، فهكذا يحدث دائما. رد الفعل الفوري، التلقائي، وربما الغريزي، على أي حدث أو احساس عنيف أو خبر أو اصابة كروية هو: اطلاق النار. مجزرة جديدة على الروشة: عشرون قتيلاً آخر من هذه الحُمّى

الجديدة: حُمّى السيارات المفخخة التي أتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين. لقد مهدت هذه السيارات لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحويل هذا الحصار إلى حادث طبيعي، أحصنة طروادة معاصرة صهل في الوعي: لا أمن ولا أمان في بيروت الغربية، وكل سيارة واقفة على رصيف هي وعد بالموت.. فليدخل البرابرة!



موجة من بحر في يدي. تسرب وتفلت. ناور حول صخرة صدري، ثم قترب، رتخي، وتستسلم. ستعين، لئلا عود الى طبيعتها، بشَعْر الصدر. حرٌّ ورطوبة، موجة كالقطة قضم ُفّاحة، ثم قبلني بطيش العابث: يحق لي أن أحبك. يحق لك أن حبني. ليس الحب حقاً، يا قطة، وأنا الآن في مامِ الأربعين. نزوي في ركن: وأنا نصف قَمرٍ أنثوي يتبع ذكراً. حرٌ ورطوبة. ولكن الجسد الصغير مُكيّف: دافىء في الشتاء، طريٌّ في الصيف. جسد طازج كشاطىء بحر جديد لم لمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقترب. وتفصلني عنه رائحة حليب. لم لا نُعلِّق آب على كرسي؟ لم لا نسبح في بياض النوم؟. وتغطي عينين

لامعتين ليلاً. لأنك صغيرة. زأر: لستُ صغيرة. أنا نصف قمر أنثوي يتبع ذكراً. يتبع رائحة الهال. ألا حق لي السباحة؟ ولكن، ليس هذا البياض بحراً. غضب وتقضم فاحةً وأظافر يدها. أجمع الشفتين باصبعي لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. ها أنت حبني. اعترف بأنك حبني. قل لي انك حبني. فلماذا لا شرب ملحي؟ لأن العطش يكسر أناقة روحي. غضب وتعود إلى الركن، قرفص في الركن: لا أريد الشعر... لا أحبُّ الشعر.. أريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان من أجلك لا من أجلي. ما شأنك أنت بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. قف. قترب. يخشوشن مواؤها: أعطني شيئاً ألعب به. أعطني لعبة.. أية لعبة.. قطاً صغيراً متوتراً مشدوداً أمرر عليه يدي برفق إلى أن يسيل لُعابُهُ على صدري..

كانت الموجة وشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزّ صخور البحر، فطارت الموجة الى الطريق.. وطرت إلى السرير.



... منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا

آعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك فعل أمراً إدّاً مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفت إلى أين يأخذنا الموت..

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟. قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ «أيّ شيء» أيّ شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح. كنا في أول شارعٍ الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظي أنـي لستُ كاتباً مسرحياً لئلا أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل عرف أن عين الكاتب سلبية، كما أن أذن القائد سلبية. فتهما المفارقة الجارحة هنا والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مدمّر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي،لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالوناتٍ للنميمة وبثّ الشائعات. وازدهرت جارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة! وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم.

واعدام مقاتل رفض اطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى نظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرّافة.. و...

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل.

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا عكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم مر الطائرات. هل عبوا ؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرجت الناس من الملاجىء. لا طائرات... لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد - وهو ساكن الشقة - ورحل. حاول البعض أن يُشهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حيّ، يهتم بالماركسية وعلم اللغة. اعتبروا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هَبَتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

... وهذا الصوت لا نعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق،

سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً - وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة - بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ جاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألحّ بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يلُمُّ أشلاءنا.. ألحّ حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجأ، أثقبها. وانكحها. وخلِّصنا منها ومنك!.

ولكن ذلك الصوت البعيد حرّك فينا قلق الغابات الأولى السحيقة. مشيت أنا و «ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» شهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجري ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن حت شمس محجبة بجميع ألوان الرماد. نندس بين الحشود لنجد مكاناً للتطلع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض.

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربِّص بالعالم الذي ينشئه الانسان على أرض لا ظل إلا على شمس وقمر وهاوية... ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلم المشي، والقراءة، واستعمال اليد، إلا لنصل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرِّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذه الشيء؟

قنبلة فراغية، حفر ما حت الهدف فراغاً هائلاً يُجرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا عديل ولا غيير. وهناك، حت، في الحيِّز الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، حت، حت ما كان حتهم قبل ثانية، يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظل نائما. ومن كان يحمل طبق القهوة يظل حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظل يفتح النافذة. ومن كان يرضع من

ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائما على زوجته ظل نائما على زوجته... ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط الى الشارع، من غير حاجة الى استعمال المصعد، فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الارض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟ القائد كان هنا... وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرِّر ذلك لهم إبادة مائة انسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة الفراغية؟ كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الاميركية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الانسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. انهم حيوانات دبٌّ على أربع». كان عليه أن يجردنا من الصفة الانسانية ليبرر قتلنا، فإن قتل الحيوانات - إذا لم كن كلاباً - ليس محرماً في الشريعة الغريبة. كان بيغن يستعيد اريخ جنونه جرائمه، فقد ظن أن جنوده، صيادي هذه الحيوانات،

يقومون بنزهة صيد، فألقيت فيوجهه مئات التوابيت المرفوعة على آلاف صرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدق أن البشر هم الذين يحولون دون حول الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كل القيم وكل البشر، في كل زمان وفي كل مكان، محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: من الحيوان؟ لقد انقضت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباح من أبادهم في دير ياسين، وغيّبهم عن المكان والزمان، غيّبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب. ولكن لك الأشباح حاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشبح من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُوصر نبي الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت قادرة على أن كتب، وحدها، اريخ البشر.



... «وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق

أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأن الرب قد اعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكُل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط حيا هي وكُل من معها في البيت لأنها خبأت المُرْسَلَين اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا ُحرّموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلّة اسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد كون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق ان الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب الى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين جسسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها واخوتها وكل ما لها وأخرجا كل عشائرها وتركوهم خارج محلة اسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما

لها. وسكنت في وسط اسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا اريحا. وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلا ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة اريحا».

(سفر يشوع)

... وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الاوزاعي. كان الرجل المُحاصَر في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، ما لا يفصح عنه. كان يحاصر في قراءتنا الخاصة اكثر من ملك وقف خارج اللعبة، ويحاصر اكثر من رقعة. كان يخاطب الكناية، ويُؤَجِّل اذاعة خطب التأبين المليئة بالدموع الملكية والجمهورية والجماهيرية المعدّة منذ شهر، منذ طمأن التقدم الاسرائيلي خطباءنا الرسميين إلى مسافة الغزو المقترح، المبارك بصمت جليل، لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المسلح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

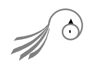
رأيت أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليّ، فازددت قلقاً.

همس في أذني: انه ليس هنا. لقد غادر المكان، وأضاف: وعليك أنت ايضا أن غادر فورا، فهذا الزحام يغري صيادي الجو بغارة أخرى.

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: عال معي! فهمت الاشارة، ولم اسأل إلى أين أنا ذاهب. وقعت كل شيء إلا أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الالمانية جالساً مع القائد. قال لي: هل تذكرني... أنا أوري. غضبت. ولكنني قلت مازحا: ماذا... هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئت من الاشرفية لأجري مقابلة صحفية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أمن الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحفي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الاعلام. فربما أراد أن يوصل رسالة مباشرة، وربما أراد أن يُمرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء ابلاغها للرأي العام الاسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟

أجاب بلا ردد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر بهذه اللغة بقدر ما أثر بها الاسرائيلي. واغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لم لا؟ لم لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن ذهب إلى بلادي ولا يحق لي أن أذهب إلى بلادي؟ ساد صمت، وانقطع الحوار. ازدادت المصورة ومساعدة الصحافي، حديقا بوجه العدو الأسطوري. سألتني احداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعة العسكرية لأنه يحارب. ازدادت التصاقا به. فقلت: هل أعجبك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيرا.

أما أنا، فلم عجبني المقابلة، ولا خِفَّةُ صاحب الشقة الذي زجَّ بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الاسرائيلية لا لشيء... إلا ليرى أهله هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف لمن نشتاق: للبلاد، أم لصورتنا خارج البلاد، أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!



أين «س» ديك الحي الفصيح؟ عاشق المسدسات، واللغة،

واللحم المُعلن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ َبَنَّيتُهُ كان نادرا ما يتكلم معي حين نكون وحيدين، فلعله صدق أني أبوه. رك الحي الذي كان يسكنه قبل الحصار وجاء إلى هنا ليقيم مع شاب لبناني سرياني الأصل. أين السرياني وأين الكردي؟ صادقا منذ اليوم الأول للحصار. أحدهما متوتر كعضلة وثانيهما بارد كقمر. كان «س» يبحث عن «ج» وكان «ج» يبحث عن اختفاء يوحي بأنه شهيد. وحين يلتقيان يشتم أحدهما الآخر، ثم يخرجان إلى شوارع الحمراء، مدججين بكامل السلاح والامتلاء، كأنهما يحرسان الهواء من الاختراق ومن ثورة مضادة. أحببت «س» منذ التقيته من سنين، مستنفرا ضد مجهول. يخجل من الكلام ولا يتدخل فيه إلا ليتوتر. حاسم صارم ولا يساوم على شيء أو رأي. لا يقول إلا للورق الموضوع على وسادة ما فيه من عالم عجائبي، فنتازي، مترع بالفصاحة. ولا أعرف حتى الآن متى يبدأ فيه الروائي، السارد، ومتى ينتهي الشاعر. صفع الحياة الثقافية البيروتية بانفجار مفاجىء. ولكنه يدافع عن كتابته بقبضته وشراسته، لأنه لا يؤمن بالحوار بين المثقفين ويعتبره ثرثرة. يأخذ مسدسه وعضلاته المزهوة ويذهب إلى المقهى المناسب ليتربص بصغار النقاد

في الصفحات الثقافية ويؤدبهم على ما كتبوا ضده. قلت له ذات مرة: هكذا كان يفعل فلاديمير ماياكوفسكي بنقاده في شارع غوركي. قال: هذا هو نقد النقد الوحيد. كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلى مكبوتُ عنفه ويحالف الفوضى. فيها يطلق أعنة جياده ويشهر حوافر نشيد لا غبار حوله سوى الرصاص. وفيها يعود إلى عصور الجبال البعيدة، وإلى نايات رقّص البعيد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى. وباختصار: فيها يجد ميدان الرياح التي متشقه سيفاً طازجاً للمبارزة مع أعداء مرّوا. ولا يفهم.. لا يفهم أبداَ لماذا يكتب الكُتّاب في الحرب. من يأبه بهم في لحظة القوة؟ يضرب على مسدسه ويتوعد: سننتصر.. سنعفر أنوفهم في التراب. لم يكن يعرف ان كان سينتصر حقاً أم لا، فهو وَلَدُ المعارك الخاسرة، ولد ضد الحساب. ما يهمه هو التحدي والمبارزة. كان «س» يقف في منطقة وسطى بين دون كيشوت وسانشو، يحيل الأعداء إلى نماذج في متناول اليد. يمتلىء حماسة فيتكوّر ويستطيل ويتوتر ويضرب أي شيء ثم يسلط على نفسه حكمة «ج» المتروي، الباحث عن الفلسفة في الشعر والمعادي للغنائية. ووجد «س» «ذات الجمال المنقطع النظير» في غياب الماء واللحم والنساء.

احذر يا «س» فهي من صناعة جدك دون كيشوت، من سلالة السحالي التي ظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتها صوت النبات اليابس في برية الأطلال. لكنه قطع شوطاً، لا راجع عنه، في عملية الاحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغل في الملهاة، ليحقق ما ينقص الفروسية: امرأة! اين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطاد دجاجة ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟



القنبلة الفراغية. هيروشيما. مطاردة رجل بالطائرات. فلول الجيش النازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصي بين بيغن ونبوخذنصر. عناوين خلط الماضي بالحاضر. وتدفع الحاضر إلى الهرولة. غد يُباع في أوراق اليانصيب. قدر اغريقي يتربص بأبطال صغار. اريخ مشاع، لا أهل له، مفتوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليوم، في ذكرى قنبلة هيروشيما يجربون القنبلة الفراغية في لحمنا. نجح التجربة...

أتذكر من هيروشيما المحاولة الاميركية لدفع هيروشيما إلى

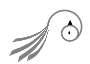
نسيان اسمها. وأعرف هيروشيما، زرتها منذ سع سنين. وفي إحدى ساحاتها كلمت عن ذاكرتها. من يُذَكِّر هيروشيما بأن هيروشيما كانت هنا. سألتني المترجمة اليابانية إن كنت قد شاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أحب امرأة من سدوم، لأحب، أو لألعب. في وسعي أن أحب جسداً يقتلني حُرّاسه خلف النافذة. قالت: لا أفهم. قلت: هي خواطر شعرية... ولكن أين هيروشيما؟ قالت: هيروشيما هنا. أنت في هيروشيما. قلت: لا أراها، فكيف غطيتم اسم جسدها بالأزهار؟ ألأن الطيار الاميركي بكى فيما بعد. ضغط على زر صغير ولم ير إلا سحابة. وحين رأى الصور، فيما بعد، بكى. قالت: لك هي الحياة. قلت: ولكن اميركا لم بك ولم غضب على نفسها. غضبت من التوازن. هيروشيما غدا... هيروشيما هي الغد.

لا شيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. واطئ أم خنوع؟ أما الضحية فلا حتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عظمية للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران

شرح درجات التدرج في القتل: من الحريق، إلى الدخان، إلى السموم، إلى الاشعاع. دريبات أولى على قتل كوني أشمل. خطيط أولي للنهاية. هكذا بدو الآن «ثروة قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية كوّن الكرة الأرضية، بفوضاها المنظمة: جبال، وديان، سهول، صحاري، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، جاعيد، صخور، وما يتبعه من نوعات جميلة في أرض مجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشب حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر، والمواد القابلة للاحتراق، ينتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يسمم كل شيء حيّ، يسمونه المطر النووي. برد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول. وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلا الجرذان وبعض أنواعٍ الحشرات. يصحو الجرذ، ذات صباح، ليجد نفسه انساناً يحكم الأرض. كافكا مقلوب. وأنا اسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الانسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم: أن

صحو الحشرة فتجد نفسها انساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!

سماء بيروت قُبّة كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة نشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: «لن يمروا؟» كتبوها. «نموت ليحيا الوطن؟» كتبوها. «هيروشيما؟» كتبوها. طاشت الحروف كلها من ذاكرتي ومن اصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي روت.



جئت إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنت في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قبعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها رام. ركبت في الترام. سار الترام على خطيّ حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّر هذه اللعبة الكبيرة

ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام. رأيت بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، طل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجارا كثيرة. الترام يسير والبنايات سير والأشجار سير. كل شيء حول الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام الى المكان الذي وضعوا فيه قبعةً على رأسي. لقفني جدي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها رام. خذوني إلى التزام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز. ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها! والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت، مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو انني أوقفت سيارة اكسي وقلت للسائق: خذني إلى الدامور. كنت قادما من القاهرة، وكنت أفتش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا ليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنت أبحث: عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافافي ايتكاه؟ كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقا لتصير أكبر. وصرت أنا أكبر. صرت شاعرا يبحث عن

ولد كان فيه، ركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسي بأن يكبر. هنا قطفت الصور الأولى. وهنا علمت الدروس الأولى. وهنا قبلتني صاحبة البستان. وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودة في الجرائد ولا يعود. جئنا من قرى الجليل. نمنا ليلة قرب بركة رميش القذرة، قرب الخنازير والأبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالا، قطفْتُ التوت من صور. ثم استقر بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين مزرعة للثلج وكان فيها شلال. لم أر الشلال من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التفاح يتدلى من أغصان الشجر، كنت أحسبه ينبت في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التفاح عن الشجر. أريد هذه الحبة. وأريد لك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا الى الدامور. غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل ولليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد. في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدي وهو

يحدق في راب محبوس خلف سياج. في راب غيَّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ آحمر وأصفر إلى ُفاح خشن. مات جدي وهو يَعُدُّ الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يسند عليه عمره. لقد خربوا قلبه. عب من الانتظار هنا في الدامور. ودَّع أصدقاءه، وأرجيلته، وأبناءه، وأخذني وعاد ليجد ما لم يجد هناك، وهنا كثر الغرباء واتسعت مخيماتهم. مرت حرب... حربان... ثلاث... أربع، وازداد الوطن ابتعاداً عنهم، وازداد الأطفال ابتعاداً عن حليب أمهاتهم بعدما شربوا حليب وكالة الغوث. فاشتروا بنادق ليقربوا البلاد الهاربة من أيديهم. أعادوا هويتهم، وأعادوا ركيب الوطن من جديد، وساروا على الطريق، فاعترضهم حُرّاسُ الحروب الأهلية، فدافعوا عن خطاهم، فخرج الطريقُ عن الطريق. وسكن اليتيم جلد اليتيم، ودخل المخيم في المخيم.

لا أستطيع أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، حتى لو كانت متراسا لقناصة أرادوا روحي. لا أستطيع ولا أستطيع. فلتبعدوا هذا المُصوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستطيع أن أرفع

شهيدي على كتف جثة معلقة على أغصان الموز. لا أستطيع. «الحرب هي الحرب» ليست لغتي. لن اقرأ شعراً في الدامور. و »ما العمل جاه ما يقطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي... ليس سؤالي أبدا أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، لأني أبحث عن ولد، ولا أبحث هنا عن بلد.



وفي انقاض الدامور، وجد أبناء الشهداء والناجون من «تل الزعتر» ملجأ آخر في سلسلة الملاجىء المتنقلة. حملوا التعب والخيبة وما نسيت أن قطعه السكاكين من أجسادهم وجاءوا إلى الدامور. جاءوا يبحثون للنوم عن متر مفتوح للريح والأناشيد. ولكن ما نسيت أن فعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا توقف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطات الأنقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الاعراس.

أللقذيفة أحفاد ؟... نحن

أللشظية أجداد ؟... نحن

ومنذ عشر سنين، أقيم في بيروت. في مُؤقت من اسمنت، أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشيد؟ سرعان ما نتهي، وسرعان ما بدأ، والعكس أيضا صحيح.

في المدن الأخرى ستند الذاكرة إلى ورقة. جلس في ساعة انتظار، في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة، صطادها لئلا هرب منك، وحين مضي الأيام وتراها تعرف إلى مصدرها، فتشكر المدينة التي وهبتك لك الهدية، أما في بيروت فإنك سيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. أخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق...

ونادراً ما لاحظ أن بيروت جميلة...

ونادراً ما حتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى...

ولا كون جديدة، ولا كون قديمة...

وحين يسألونك: هل حبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبه؟ أأُحبها؟ ثم بحث عن عاطفة محددة لها، فتُصاب بدوار أو خَدَر. ونادراً ما حتاج إلى التأكد من أنك في بيروت، لأنك موجود فيها بلا دليل، وهي موجودة فيك بلا برهان.

وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجود النيل. اذا رأيت النيل فهذا يعني أنك في القاهرة. أما هنا، فإن صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينة، أم مخيم شوارع عربية وضعت بلا رتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نص، فتاة ربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحد أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم بدو سهلة!

وكم بدو مستعصية على جانس المفردات المتجانسة الايقاع والقافية: بيروت، ياقوت، ابوت...

أم لأنها قدم نفسها لعابر السبيل الذي، وحده، يشعر بأنها بهجته الخاصة. ووحدهم أصحابها وأصحاب الأسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت، ولا أعرف إن كنت أحبها أم لا أحبها...

للسياسي المهاجر كرسيٌّ لا يتغير ولا يتبدل، وبتعبير أدق: للكرسي سياسي مهاجر لا يُغَيِّره...

وللتاجر المهاجر فرصة التأكد من أن ريح الخمسينات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن مر من هنا...

وللكاتب الذي ضاقت به بلاده أو ضاق بها الحرية في أنْ يعتقد أنه حر، دون أن يعلم في أية جبهة يحارب.

وللشاعر السابق امكانية الحصول على مسدس وحارس ومال، فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشي آخر.

وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلّم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق.

وللمهرّب أن يهرِّب.
وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكل قادم إلى بيروت بيروته الخاصة به. ولا نعرف، ولا أحد يعرفً، إلى أي حد يُشَكِّل مجموع هذه المدن مدينة بيروت التي لا يبكي عليها الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون...

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، حول لقاء الأضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، دون أن يسأل الكثيرون من العشاق هل هم في بيروت أم هم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها. ولعلَّها لعلَّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع أنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة، ولا وطناً واحداً، وأنها ليست بلاداً متجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بيننا وبين واشنطن، وأن التناحر بين هذا الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفي الحرب فقط أدرك المقاتلون أن سلام بيروت مع بيروت مستحيل. وفي الهدنة فقط أدرك المقاتلون والمراقبون أن هذه الحرب لا نهاية لها، وأن النصر فيها - خارج وازن الهزيمة - مستحيل.

ولعل الجميع أدركوا أن لا بيروت في بيروت. فهذه السيدة الجالسة على حجر صورة لزهرة عباد الشمس تبع ما ليس لها، وتجر عشاقها واعداءها، على السواء، إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أو عليهم، ولا كون لهم أو عليهم.

انها شكل لشكل لم يتشكل، لأن الحرب فيها - أعني حولها - سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأن الدائم فيها هو المؤقت.

أو: خذ موجة. أجلسها على صخرة الروشة. فكّك عناصرها، فلن جد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا نتهي ولا بدأ.

سؤال: هل هي مرآة؟

جواب: بقدر ما صلح الموجة لأن كون حجراً...

سؤال: هل هي طريق؟

جواب: بقدر ما كون القصيدة شارعاً...

سؤال: هل كذب؟

جواب: عندما يُصَدِّقُ المرء ما لا يُصَدَّق...

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه

الوجوه كالتي دخل المرآة سترى ما لم ر خارج الدم والحريق، وتُغيِّر مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت ستطيع أن كون جزيرة في الماء او الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السلالة إلى الوطن، وأن الوطن سيدخل في الأمة، وأن الأمة ستكتشف بديهية شرط حياتها، كأن عرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكا يبدو لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا - على الأقل - علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الاقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤة الجوهر.

وكان يبدو لي...

وكان يبدو لي...

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل: هل انا في فضاء ام في قفص؟

أمُرّ الآن في بيروت، في ربيع ١٩٨٠، فأرى قفصا مصنوعا من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

- هل اخطأت؟

- كثيرا.

- اخرج من هنا.

- هل انتهت الحرب؟

- عاد جميع الغزاة، وولد الوطن من جديد.

- الى اين اعود؟.

- الى بلادك.

- اين بلادي؟

- في الأمة...

- وفلسطين؟

- ابتلعها السلام.

وصرت الغريب الوحيد. ماذا افعل في باريس؟ ماذا فعل في بيروت؟ الى متى ابقى في لندن؟ الى متى بقى في بيروت؟

قل لي: ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية.

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم...؟

قال: لا هذه ولا لك، انتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لا ستطيع ان كون جزيرة في الماء او واحة في الصحراء، عد من حيث أتيت لأن الشارع يرفضك.

وصرت الغريب الوحيد، كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافيا لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافيا لفلسطين؟ لماذا يصبح السقف السوري منافيا لفلسطين؟ ولماذا كون فلسطين منافية لفلسطين؟

كم أنا غريب هنا، في ربيع ١٩٨٠. الهواء ينذر بشيء ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرت الغريب الوحيد.

... وعلى الجدران، قضم الاعـلام الرسمية مزيدا من صور الشهداء، ومن الكلمات التي كانت نشىء ماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة، بيروت مَرَّت من هنا، بيروت مرّت من هنا، بحثت عن طفلة الجنوب التي أكلت بطاقة هويتها الرسمية، فوجدتها تدريب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي حمل اليها العيد.

انه الوطن...

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي مردت عليها بيروت حين مَرّت من هنا. صارت العودة الى الفوارق التي اشعلت حرب السنوات الاربع أمنية واحدة. وعادت بيروت وطن اللغة التي ثارت عليها، لم لا؟ لم لا؟ لم لا؟ والسلام يخيم، فجأة، على الجنوب لولا مواقع يربطها بفلسطين خيط من دم... السلام يخيم على الجنوب لولا فلسطين...

ورأيت بيروت بكي الجنوب، أعني رأيت المثقفين والرسميين يبكون الجنوب، فجأة ذكروا ان بيروت عاصمة لبنان، وان الجنوب من لبنان. وتذكرت كيف كانوا ينسون الجنوب حين كانت الطائرات شوي الجنوب. قبل أسيس دولة حداد، كانوا يجلسون في المقاهي، يشربون البيرة، ويشفقون على عذاب بيافرا. يومها كان مفهوم الوطن يزعج الاسرائيلي الذي لا يعترف بوطن على الحدود، يومها كان الوطن يعني الواجب، وكان الواجب يعني حماية الجنوب من الطائرات والدبابات الاسرائيلية، يومها لم يكن الوطن في حاجة الى وطن.

- ماذا غيَّر يا صديقي؟

- البنايات الفخمة ملأى بالمهاجرين من الجنوب، والمهاجرون لا يدفعون الأجرة.

- وماذا غيّر يا صديقي؟

- الوجع الجديد يطرد الوجع القديم. والمشكلة الجديدة زيح المشكلة القديمة. وأنت الغريب الاخير.

الاسئلة ثير سخرية بيروت الباحثة عن وازن جديد للتوازن القديم، وعن وطن قديم للوطن الجديد. التيارات بحث عن الصدفات التي خرجت منها. وليس من حق أحد ان يلومها الا بقدر ما كان من حقه ان يصدق ما صدق. يُقال ان حرب الوعود انتهت وبدأ بناء السلطة. ولم عد المرآة عكس الا ما هو امامها.

وهذا الفضاء قفص...



... وماذا ايضاً؟ عليك ان كون ابيض، فهنالك ما هو اغلى من الحرية، ومن الحياة...

ما هو؟

البياض.

... «ويقول علماء التاريخ الطبيعي ان السمّور حيوان صغير ذو فراء ابيض، شديد البياض، واذا اراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته، وحين يصل السمور الى المكان الذي وسّخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل ان يُصطاد ويُقتل على ان يمر في الطين، ويوسّخ بياض فرائه، لأنه يفضل البياض على الحرية وعلى الحياة».

(سرفانتس - في حكاية المستطلع الفاسد الرأي)



اللقذيفة أحفاد؟... نحن.

اللشظيّة أجداد؟... نحن.

وانقلب الصمت، صمت المتفرجين، الى ملل، متى ينكسر البطل؟ متى ينكسر ليكسر تابع الخارق الى مألوف. البطولة

ايضا دعو الى الضجر عندما يطول المشهد فتخف النشوة. ألم يُدفع موضوعٍ هذه البطولة ذاته الى موقع الضجر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة بحث عن حياتها العادية الخالية من الرسائل والهتاف، ليشهر الحاكم امامها اسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المكلل بالسجون، وتحويل الزراعة الى صناعة لا نتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثة النعمة، المثقلة بهموم الاستهلاك الفردي الذي يثقل الدولة بديون يحتاج المواطن ان يعيش عمره مرتين ليسددها؟ لقد جربت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء الى اهلهم سالمين، وبوجبة فول افضل. فازدهرت الكماليات، وامتدت سنوات الخطوبة الى أجل غير مسمى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجوعى جوعاً. ووضع السادات كل من ساءل: «اين ثمن السلام؟» في السجن حتى خرج من صفوف حراسه فتى يطلق الرصاص على فرعون، وعلى هذا السلام، وعلى هذا السراب. والآخرون؟ الآخرون استخلصوا العبرة واستغنوا عن شبق السادات امام الخطاب وشيّدوا

بمنهجية ومثابرة سلام الأمر الواقع المشروط بربط المعدة العربية بشروط الرضا الاميركي. وضعوا المعدة العربية رهينة، واشهروا الحرب بالسلاح وبالصمت على موضوع البطولة. وانتظروا، بقليل من الحرج، ان يحرق الاسرائيليون، نيابة عن الجميع، مسرح هذه البطولة ومنصة هذا الخطاب البديل. البطولة ايضا دعو الى الضجر. كفى. واختلفوا في طريقة سويق الضجر: بعضهم يدعو الى انتظار مرحلة اريخية نقلب فيها موازين القوى، بعصا سحرية خارجية، الى مصلحتنا، مما يوفر لنا حق الكلام في الحرب أو السلام، وبعضهم يستعجل النهاية وينصحنا بالرحيل على سفن اميركية، بلا شروط وبلا مماطلة. وبعضهم يستعجل النهاية ايضا بدعوتنا الى الانتحار الجماعي ليستولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفى، الى متى يصمدون؟ فاما ان يموتوا واما ان يخرجوا! الى متى يخدشون أمسيات العرب بجثث قطع سلسل المسلسل الاميركي؟ الى متى يحاربون ونحن في عز الاجازة والمونديال وتربية الضفادع؟ فليفتحوا الطريق امام شهواتنا وعارنا. لتتوقف هذه الملهاة. اما حكماؤهم، المجللون بلياقة التعاطف، فانهم يقدمون للضجر مظهراً

أبهى: آن لهم ان يعرفوا ان لا أمل... لا أمل يرتجى من العرب. أمة لا ستحق الحياة، أمة على صورة حكامها. وهذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صمت مُكَلّل بكل ما يفرغ التاريخ من أنخاب. أحصنة زيينية على حقول ألفت مواسم الغزو. وخطاب واحد يشتهي اغتراب الكلمات عما وراءها. خطاب واحد يعدد الصدأ المتراكم على الكلام منذ استوى الخطيب على عرش المنبر. خطاب واحد يلقيه المنقسمون على انفسهم، المقتتلون على خطاب. أمن حق مدينة، في هذا الحجم، وفي هذه الفوضى، ان منح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حقها ان خربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حقها ان قترب من سياج الصراع المحكم النسيج وتضع قواعد اخرى لجيران العدو – هذه هي اسماؤهم والقابهم: جيران العدو؟ اذن «الموت لبيروت» يَعْنون: الموت لهذا الشارع الاخير الخارج عن هندسة الطاعة.

ضجروا، ضجروا. لقد طالت المهلة المحددة لسقوط المعنى الاخير، المتدلي كالثمرة الناضجة على نخلة العرب اليابسة، المتدلي لمن يرث ليدفن لا ليعلن جدوى التراكم. متى يوقفون الجنون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في شابه الرمل؟ متى

يسقطون مثلنا، مع الاحتفاظ بفارق معافى هو: اننا نسقط على عرش، من الهزائم المدوية الى العرش، وهم يسقطون على نعش، من البطولة الى النعش.

وفي جعبة الضجر ما يشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح الا وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة، ومن اين أتي الشدة في هذا الرخاء المرفّه؟ هم يعرفون اكثر مما نعرف. قد أتي من حي او شارع يغضب. ولكن، من يُغضب هذا الشارع الذي أدمنّا هجاء حراسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرئ الأمل من داء عضال؟ أما من أحد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد...

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كلما جاءهم خبر عن ضييق الخناق على ل الزعتر. فبماذا يتلهون الآن، اثناء ضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صورهم على احواض السباحة. أليس شهر آب حارا؟ ورأينا عب حراسهم المدججين بالبنادق وهم يرفعون ابتسامات اسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لاعادتها الى

الافواه المفتوحة سالمة... سالمة من عيون المارة ومن حصار بيروت...

ولكنني لا اغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت حتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم، لا لأن كرة القدم لهب الحماسة اكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا ُهَدِّدُ الوطن مادياً، في حرب معنويات نتهي الى هدنة أكيدة بعد خمس واربعين دقيقة، يعيد خلالها المتحاربون وزيع صفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعية، ويتزودون بما يحتاجون اليه من ذخيرة معنوية ونجدة شعبية، ثم يعودون الى القتال حت اشراف قوات دولية لا سمح باستخدام الاسلحة المحرمة دوليا. وتنتهي الحرب المحدودة، المسيطر عليها، في ساحة المعركة وخارجها، ولا تجاوزها الى حدود البلدين، باستثناء حالات نادرة كما حدث بين السلفادور وهندوراس. ولكن التوازن الدولي الدقيق، الممثل في مجلس الأمن، مكن من اصدار قرار قابل للتنفيذ.

ولأنـي أحب كرة القدم، لم اغضب كما غضب غيري من المفارقة. لا مظاهرة واحدة يثيرها حصار بيروت، بينما ثير كرة القدم هذه المظاهرات اثناء حصار بيروت، لم لا ؟ ان كرة القدم هي ساحة التعبير التي يوفرها واطؤ الحاكم والمحكوم في زنزانة الديمقراطية العربية المهددة بخنق سجنائها وسجانيها معاً. هي فسحة نفس تيح للوطن المفتت ان يلتئم حول مشترك ما، حول اجماع ما، حول شيء ما، ضبط فيه حدود الاطراف وشروط العلاقة، مهما سربت منها ايماءات ذكية، ومهما اسقط فيها المشاهد على اللعبة ما فيه من المعاني المضغوطة. وطن، او شكل من جليات روح الوطن يدافع عن كرامته، او فوقه، امام الآخر، فلا يخسر وزيع القوى الداخلي شيئا من ماسكه الظاهري. المتفرجون يستولون على ادوارهم الغائبة في السياسة، يستحضرونها باحالتها على ذكاء العضلات ومناورات اللاعبين واندفاعهم نحو هدف واحد هو صويب الهدف. والحاكم الذي عيّن نفسه مُعبِّرا عن روح الأمة يعبر عن نصر هو نتاج سياسته الحكيمة، وتنشيط الارادة والطاقات. لعله، وليس اللاعب، هو الأقدر على التأويل لأنه هو صاحب الأمة وراعيها، وهو الذي ينفق

من ماله الخاص على شجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب الى عكسه حين ختلف النتيجة عن المنشود والمتوقع، حين ينهزم الوطن اللاعب امام الآخر، عندها يتنصّل الحاكم من الهزيمة ويحملها للاجهزة، لتاريخ التقاليد مرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسة اللاعبين-المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحكم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد. وفي السياسة، ليس من التقاليد العربية الحديثة معاقبة القائد على الهزيمة. انه يدعو الشارع للعطف عليه، ولمواساته الجماعية المعبّر عنها في دعوته الى البقاء على العرش ليكيد للاعداء. أليس ما يريده الاعداء هو اسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على انفسنا وابقاء الحاكم المهزوم جلاداً لنا.

ولكن الأمر يختلف في كرة القدم: في وسع الشارع ان يغضب على اللاعبين وعلى المدرب وعلى الحكم الاجنبي،. اللاعبون خانوا روح الأمة، والمدرب اساء وضع الخطة، والحكم منحاز. اما الحاكم فهو بريء من الهزيمة، لأنه مشغول بقضايا اكثر جدية. لذلك يرفع الشارع الغاضب صورة الحاكم عالية عالية، وينفذ من حتها الى حرية التعبير: يشتم الغرب كما يشاء،

ويومىء الى الداخل كما يشاء. هذا ما بقى لنا من حرية، فهل نُفرِّط بها؟ وهذا ما بقى لنا من متعة، فلنصفق لما يشير الى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم قول لنا ذلك. قول ان العاطفة الجماعية لم تبلَّد، وان في مقدور الشارع ان يتحرك بلعبة لا ثير الضجر. ألم حتل فلسطين، فيما مضى من حاضرنا، هذه المكانة، العاطفية الحماسية؟ الم يتحرك كُل شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كان ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأي مساس بهذا القلب الجماعي. الآن يتسابق الحُكّام ليرشوا الشارع، ليدفعوه الى التخلي عن هذا الاجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدى علانية للخطوة والفكرة الفلسطينيتين ويحملهما المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، البعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة الى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا اكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. لكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فان السجون ليست شرطا لتحرير فلسطين.. و «لا صوت يعلو

فوق صوت المعركة». لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلل الى سؤال التحرير المعصوم عن العقاب، الى ان فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة، فحرم فلسطين واخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سر الأمة.

هامش كرة القدم هو الهامش الفلسطيني السابق، فليغضب الشارع، وليهرب سؤاله المكبوت الى لعبة لا ثير الضجر، ولا تيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، ان يُغلق الملعب.

صمت مُتوّج بأوهام القادرين، الى الآن، على قسيم الجهات الى جهتين، والألوان الى لونين.

صمت مُكَلّل بأوهام القادرين على انتظار النجدة. صمت مُرصَّع بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الذين يقودون الجملة الثورية الى خارج مصادرها، بتبعية محكمة ومستحكمة، استبدلت الشارع بالعاصمة، ونطقت باسم الشارع ضد العاصمة الاخرى، لأنها استثنت عاصمتها، سياج وعيها، من طبيعتها. وعينت للشر المطلق عاصمة، وللخير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف، ان

ستبدل عاصمتها بعاصمة اخرى - دون ان تخلى عن دفُّق الجملة الثورية المرادفة للع اصمة. لا بُد من عاصمة.. لا بُد من عاصمة!..



... لماذا يرتجف الصنم الى هذا الحد؟ لماذا يرتجف الصنم؟ سيقول عكس ما هو. سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل لاوة درس البداية..

سيمجد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب الى برهانه: ألم أقل لكم؟

ولكنك لا قول شيئا يا سيِّدي الصنم..

يندس في السُلطة ليكون معارضاً، ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة. ويحارب السلطة بسلطة اخرى. ولا يتبعه أحد من فرط ما هو ابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئا لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد اي شيء آخر.

سيقول انه لم يوافق على الخروج.

سيقول انه قال لنا.

ولكنه لم يقل لنا شيئاً.

لماذا ارى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا ارى الصنم؟



صمت من ذهب. صمت من شماتة. لذلك اعجبتني غضبة الأمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «المونديال». كانت العلامة الوحيدة على وجود شيء يتحرك خارج اسوارنا الصاروخية. كانت الدليل على ان الأمة لا سمح للأجنبي بأن يخدش روحها. وكانت حمل ردا ساخرا على وزراء الخارجية العرب الذين نادوا للاجتماع في ونس لبحث «امكانية» عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الاسرائيلي، ورداً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الاميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق اصحاب «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم واصابعهم؟ أليس

في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الارض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط. شهر واحد لا يزيد عن لحظة عابرة في اريخ الحكم العربي الخالد. ولا كفي لصياغة رد الدول العربية على افترا ءات المبعوث الاميركي عليها. لقد قـال: ان هناك قـراراً عربياً ودولـيـاً بتصفية المقاومة! خسىء! فلماذا كون الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزرا ء خارجيتها ساعات صعبة في ونس، يختلفون فيها على حليل اهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين ام ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الاعلان الاسرائيلي عن مداه؟ وسيختلفون على عريف مادة البترول: هل هو سلعة جارية، ام سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية، بالضجر. فان الخبر المشتهى لم يعلن بعد، المقاومة لم مت، وما زال في خزانات الطائرات الاسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لاحراق خمسين الف طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الاسلحة الاميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والاوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات

كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. وما زال في البحر الابيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت اهداف مدنية كثيرة لم قصف. فلماذا العجلة؟ لماذا العجلة؟

ونحن ايضا نحب كرة القدم، ونحن ايضا يحق لنا ان نحب كرة القدم. ويحق لنا ان نرى المباراة، لم لا ؟ لم لا نخرج قليلا من روتين الموت؟ في أحد الملاجىء استطعنا استيراد الطاقة الكهربائية من بطارية سيارة. وسرعان ما نقلنا «باولو روسي» الى ما ليس فينا من فرح. رجل لا يرى في الملعب الا حيث ينبغي ان يُرى. شيطان نحيل لا راه الا بعد سجيل الهدف، ماما كالطائرة القاذفة لا ُرى الا بعد انفجار اهدافها. وحيث يكون باولو روسي يكون الجوول، يكون الهتاف، ثم يختفي او يتلاشى ليفتح مسارب الهواء من أجل قدميه المشغولتين بطهو الفرص وانضاجها وايصالها الى أوج الرغبة المحققة. لا عرف ان كان يلعب الكرة ام يلعب الحب مع الشبكة. الشبكة تمنع، فيغويها ويغاويها بفروسية ايطالية أنيقة على ملعب اسباني حار. ويغريها بانزلاق القطط الهائجة المائجة على صراخ الشهوة. وعلى مرأي من حراس العرض المصون الذين

يعيدون اغلاق بكارة الشبكة بغشاء من عشرة رجال. يتقدم باولو روسي بكامل الشبق، يتقدم لاختراق شبكة قابلة للنيل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل.

كرة القدم،

ما هذا الجنون الساحر، القادر على اعلان هدنة من أجل المتعة البريئة؟ ما هذا الجنون القادر على خفيف بطش الحرب وتحويل الصواريخ الى ذباب مزعج! وما هذا الجنون الذي يعطل الخوف ساعة ونصف الساعة، ويسري في الجسد والنفس كما لا سري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الاول مع امرأة مجهولة..

وكرة القدم هي التي حققت المعجزة، خلف الحصار، حين حركت الحركة في شارع حسبناه مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم افرح بمظاهرات ل ابيب التي سرق منا كل الادوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة. لأنها شي

بتغييب ابطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة وتعودوا على الانتصارات السهلة، وقد سهل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع ل ابيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين. واستنهضتهم ضحاياهم الى درجة دفعت ضابطا كبيرا الى الاستقالة. كنت استمع الى اذاعتهم ولا افهم سر البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى على فقدان هويته: الضحية. لا حق لأحد في ان يحرز هذا الانجاز: ان يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على اصحابه يقلب ميزان العدل الرملي. وبالنيابة عنا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو اقسى من هذا الغياب: ألا كون معبراً عن النصر، وألا كون معبراً عن الهزيمة؟ ان كون خارج المسرح ولا حضر عليه الا بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون؟ «ان أردتم فليست لك بخرافة» هكذا اطلق يودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي الى أسيس دولة لشعب لا ارض له على ارض لا شعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له ارض محتلة مع غزاة سرقوا لك الارض، قام ناثان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار هرتسل بسخرية لامعة: «ان

اردتم فليست لك بخرافة: نصر اسرائيل لن يخيب، ولكن لن يدوم لكي يخيب» عشرات القصائد العبرية حاول التعبير، بدلا من القصائد العربية، عن حصار بيروت، والاحتجاج على المذبحة. منهم الخطيئة ومنهم الغفران. منهم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء.



ثم دخلت سنة...

* وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا أزيد من ستين الف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا. واخذوا من حول الصخرة اثنين واربعين قنديلا من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستماية درهم. واخذوا نورا من فضة زنته اربعون رطلا بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلا من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام الى العراق، مستغيثين على الفرنج الى الخليفة والسلطان. فلما سمع الناس هذا الامر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا، وندب الخليفة الفقهاء للخروج الى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد. فخرج ابن عقيل وغير واحد من اعيان

الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئا، فإنّا لله وإنّا اليه راجعون. فقال في ذلك ابو المظفر الأبيوري: وشرّ سلاح المرء دمع يريقه/ اذا الحرب شبت نارها بالصوارم.

* وفيها سار السلطان محمد بن ملكشاه الى الري فوجد زبيدة خاتون أم أخيه بركيارق، فأمر بخنقها، وكان عمرها اذ ذاك اثنين واربعين سنة.

* وفيها بعث السلطان ملكشاه كتابا الى الحسن بن صباح أحد دعاة الباطنية يتهدده وينهاه وبعث اليه بفتاوى العلماء. فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: اني اريد ان ارسل منكم رسولا الى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك! فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتا. وقال لآخر منهم: الق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة الى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب.

* وفيها ملكت الفرنج قلاعا كثيرة منها قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر - وهو الذي اخذ بيت المقدس - الى عكا فحاصرها.

* وفيها ادعى رجل النبوة بنواحي نهاوند، وسمى اربعة من اصحابه بأسماء الخلفاء الاربعة.

* وفيها ظهرت صبية عمياء تكلم على اسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيات، وبالغ الناس في انواع الحيل عليها ليعلموا حالها فلم يعلموا. وسألوها عن نقوش الخواتم المقلوبة الصعبة وعن انواع الفصوص وصفات الاشخاص وما في داخل البنادق من المشمع والطين المختلف، والخرق وغير ذلك، فتخبر به سواء بسواء، حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك، فقالت: يحمله الى أهله وعياله...

* وفيها قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة الى بغداد فنزلت في دار اخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مئة واثنين وستين جملاً، وسبعة وعشرين بغلاً، وفتح الفرنج مدائن عديدة منها مدينة صيدا وغيرها.

* وفيها قاتلوا الفرنج بالشام وانتزعوا منهم حصونا كثيرة. ولما دخلوا دمشق دخل الامير مودود صاحب الموصل الى جامعها ليصلي فيه فجاءه باطني في زي سائل فطلب منه

شيئا فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته.

* وفيها جاء كتاب من الفرنج الى المسلمين وفيه: «ان أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ علي الله ان يبيدها».

* وفيها عزم الخيفة على طهور اولاد أخيه، وكانوا اثني عشر ذكراً، فزينت بغداد سبعة ايام بزينة لم يُرَ مثلها...

* وفيها وقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً أجَّج فأحرقت دورا كثيرة. وظهرت في بغداد عقارب طيارة لها شوكتان، فخاف الناس منها خوفاً شديداً.

* وفيها وجد رجل يفسق بصبي فألقي من رأس منارة. وفيها ملكت الفرنج عدة حصون من جزيرة الاندلس. وفيها ملك نور الدين بن محمود زنكي عدة حصون من الفرنج بالسواحل. وفيها زوج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين حسام الدين مرتاش بن أرتق، بعد ان حاصره فصالحه على ذلك، فحُملت اليه الى الموصل بعد سنتين، وهو مريض قد اشرف

على الموت، فلم يدخل بها حتى مات. فتولى بعده اخوه قطب بن مودود فتزوجها..

* وفيها وقع مطر في اليمن كُلُّه دم، حتى صبغ ثياب الناس.

* وفيها باض ديك بيضة واحدة، ثم باض باز بيضتين، وباضت نعامة من غير ذكر. وكانت وقعة عظيمة بين نورالدين الشهيد وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً...

* وفيها هاجمت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس ان كون الساعة، وزلزلت الارض وتغير ماء دجلة الى الحمرة، وظهر في ارض واسط دم لا يعرف ما سببه. واخذ الفرنج عسقلان.

* وفيها كان غلاء شديد بخراسان حتى أكلوا الحشرات، وذبح انسان منهم رجلا علويا فطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قُتل.

* وفيها سَقَطَ بَرَدٌ بالعراق كبار، زِنَةُ البردة قريب من خمسة ارطال، ومنها ما هو سعة ارطال بالبغدادي. وخُسِفت هناك القبور وطفت الموتى على وجه الماء. وفيها أقبل ملك الروم

في جحافل كثيرة قاصدا بلاد الشام فرده الله خائباً خاسئاً. وفيها قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلاً يقول: اذا اجتمعت ثلاث خا ءات مات الخليفة المقتفى - يعني خمساً وخمسين وخمسمائة.

* وفيها كتب صلاح الدين الى الامراء يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الاموال الى الفرنج، وهم أقل وأذل، واخبرهم انه على عزم قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردوا اليه كتاباً فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت اليهم..

* وفيها كتب اليهم [الامراء] القاضي الفاضل على لسان السلطان كتابا بليغا فصيحا فائقا رائقا، على يدي الخطيب شمس الدين، يقول فيه: «فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير. ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير. ونتلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير». فلما وصلهم الكتاب اساؤوا الجواب.

* وفيها بعث ملك الانكليز الى السلطان صلاح الدين يذكر له ان عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نية ارسالها اليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجاً وطيراً

لتقوى به، فعرف انه انما يطلب ذلك لنفسه يلطفها به، فأرسل اليه شيئاً كثيراً من ذلك كرماً. ثم ارسل يطلب منه فاكهة وثلجاً، فأرسل اليه ايضاً، فلم يفد معه الاحسان، بل لما عوفي عاد الى شر مما كان. واشتد الحصار على عكا ليلاً ونهاراً، فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما ان عملوا معنا شيئاً غداً، وإلا طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشق ذلك علي السلطان.

* وفيها وقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاثين سنة وستة اشهر، للفرنج ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات قسم على المناصفة...».

ابن كثير (البداية والنهاية).



... «وليس عند الافرنج شيء من الغيرة والنخوة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من

الحديث. فاذا طولت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك اني كنت اذا جئت الى نابلس انزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات فتح الى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل افرنجي يبيع الخمر للتجّار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّية من هذا الخمر. من اراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا». فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش، فقال له «اي شيء ادخلك الى عند امرأتي؟» قال: «كنت عبان دخلت استريح». قال: «فكيف دخلت الى فراشي؟». قال: «وجدتُ فراشاً مفروشاً نمتُ فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟» قال: «الفراش لها، كنت اقدر امنعها من فراشها؟» قال: «وحق ديني، ان عدت فعلت كذا خاصمت انا وانت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك انه كان عندنا رجل حمّامي يُقال له سالم من أهل المعرة في حمّام لوالدي رحمه الله، قال: فتحتُ حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخل اليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه المئزر في الحمام، فمدّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني وانا قريب عهد بحلق عانتي، فقال:

سالم. فتقربت منه. فند يده على عانتي وقال: سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرَّ يده عليه فاستوطأه فقال: سالم، بحق دينك اعمل للداما. (والداما بلسانهم الست) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما جيء، فمضى الغلام احضرها وادخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

«فانظروا الى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. وما كون الشجاعة الا من النخوة والأنفة».

(أسامة بن منقذ - كتاب الاعتبار)



... ساعات ما بعد الظهر. رماد من بخار، وبخار من رماد. المعدن سيد الوقت. لا يفلُّ المعدن غير معدن آخر يصنع اريخاً آخر. القصف يطاول كل شيء. ولا يبدو ان لهذا اليوم

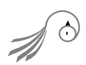
نهاية. آب اقسى الشهور. آب اطول الشهور. وهذا اليوم اقسى ايام آب واطولها. اما لهذا اليوم نهاية؟ لا اعرف ماذا يحدث في ضواحي المدينة، لأن هدير المعدن حجب عنا صمت الاشقّاء المُدَوِّي؛ حجب عنا صمت الملوك والرؤساء ووزراء الدفاع المشغولين بقراءة ما لا يقرأون. ولم يبق امامنا سوى سلاح الجنون. نكون او لا نكون. نكون او نكون، لا نكون او لا نكون، ليس لنا غير الجنون. «حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذين حبهم ذهبوا، فإما ان كون او لا كون». اريخ يتغير شكله ومؤرخوه. اريخ يكتب صورة النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلب، من يؤرخ خروج العدو من الأخ، ودخول الأخ في العدو؟ ومن اطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الاخضر. حلزون يسد حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل ان يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتا بما ليس لنا ندافع عمَّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدّي الى الجبل. وليس لنا خطاب المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الامم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطل الى موطىء لكعب. لماذا يطلع الحلزون في وجهي، مرة اخرى، في نهار واحد؟ باً لهذا

النهار... تباً.

... جالسا في ركن قصيّ، قصيّ عن الآخرين وعن نفسي، أفكر فيما يرد علي من منام يخرج من منام: هل انت حي؟ متى حدث ذلك؟ هل حميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل ستطيع سوسنة الماضي ان كسر هذا السيف المرصع بالقذائف؟ ولماذا هي... لماذا هي؟ لماذا طلع السوسنة من نشيد الاناشيد وقد أوقِفَتِ الشمسُ والقمر على اسوار اريحا ليمتد زمن القتل؟

... حصَّة للطفولة وحصة للشبق. جسد للمغفرة. جسد للشهوات. يذوب رخام الكلام ليصقل مدائح الساق التي شق المقبرة الى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الاول في العظام اليافعة. كم امرأة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأة فيك لأسقط في زحام روحي وانجو على والد لحظة. كم امرأة انت ليدخل الوقت في الوقت ويخرج خيطا من حرير يصطفيني لاختيار مشانق الدم. كم امرأة فيك لتتقمص البرهة اريخ الصلاة والمجون على قدمين هما ختم جهنم والجنة! كم امرأة انت لتكون سيرة هذا البطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الدفاع عن الصبا

والاربعين. كم امرأة انت لأسترد الشتاء السابق من كل ما يأتي من مطر اختار من قطراته شبها لما عرفت، ولأقارن اللذة باللذة. هل كنا معاً حقاً على صوف لك الارض؟ أُقَلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة هز الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدد فينا ظَنِّي بأني معك. ولم أقل اني أحبك، لأني لا اعرف ان كنت احبك ما دمت اخبىء دمي حت جلدك وفي شعيرات السر المقدس اذرف عسل النحل الاحمق، السرّ الذي امتصني لأجد جسدي يتوالد بلا انقطاع. ولم قولي أُحبَّكَ لأني لن أُصدِّق ان جميع النساء اللائي وُلدن على جبل جلعاد وفي سومر وفي وادي الملوك يجتمعن عليّ الليلة. كم امرأة فيك لتنوح احلامي على ما فقد الأمم من شتاء يستحقُّ ان كوني أمَّه وسيدته. في كُلِّ امرأة جميلة هِبة من وصايا قدميك للأرض، وإرث لا ينقطع عن زويد الغابات بهستيريا العشب. ليت واحداً منا يمقتُ الآخر ليصابُ الحب بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحدا منا يموت قبل الآخر ليصاب الجنون بالجنون.



خذني الى استراليا - قالت - لأدرك انه آن لنا ان نبتعد عن الفارق والحرب. خذني الى استراليا. لأنني كنت عاجزاً

عن الوصول الى القدس. كنت خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش ان هزم، وللنحلة في قلبي ان صمد، وللروح ان نتصر علي وعلى اعدائي. كانت الفتوة والغنائية حفران لي مساراً آخر على جبل يطل على ساحات اريح: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، واعشاب. من لك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا عود الموجة عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيري من هيجان اللحظة بانتقالي من شهيد الى شاهد.

ولكن، لماذا اتذكرها في هذا الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البار - الملجأ؟ ألأن امرأة اخرى جالسة قبالتي عيد مشهد الصرخة، ام لأن مناماً اخرجها من منام هذا الفجر؟ لا اعرف كما لا اعرف ماماً لماذا اتذكر أمي، ودرس القراءة الاول، وفتاتي الاولى حت شجرة الصنوبر، وعقدة الناي التي لاحقتني خمسة وعشرين عاما. عود الدائرة الى نقطتها الاولى.

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة...

لا قضمني كتفاحة، فلنا هذا الليل كله. خذني الى استراليا حيث لا أحد منا هناك، لا أنت ولا انا...

كانت ضع الحطب في الموقد. وكانت الاغنية عيد الاغنية ذاتها: سوزان أخذك الى النهر. الكلمات جميلة، والصوت لا يغني بقدر ما يقرأ شعراً لا يصل الى اي مكان. انسان وحيد في البراري. انسان يقول ليتماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى قبلني؟

عندما اصدق ان في وسعي ان اصدق ان هاتين الشفتين مفتوحتان لأجلي...

اذن لمن؟

لصوت قادم من كوكب بعيد. اتعرفين ان في وسع عينيك ان نُلَوِّنا أي ليل بأي لون ريدين؟

قبلني!

مطر خلف الزجاج. وجمر داخل الزجاج. لماذا مطر الى هذا الحد؟

لكي بقى فيّ...

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا نطفىء. جسد لا ينتهي. رغبة ضيء الظلام والعظام. ولا ننام الا ليوقظنا

عطش الملح الى العسل، ورائحة البن المحروق قليلا على اشتعال الرخام. بارد وساخن هذا الليل. ساخن وبارد هذا الانين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتد كلما احتك بمسام جلدي وصاح. الهواء ابر من لعاب دافىء بين اصابع قدمي، وعلى كتفي افعى من الكهرباء زحف وتشرئب على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يبقي من اللغة غير صراخ الغرف الموصدة على حرب الحيوانات الاليفة. وعرق يبرد الهواء ويجفل..

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.



الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: اعطني مزيداً من البيرة، هل مرّ «س»؟ لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. واستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأت بعد. والشاعر الممتلىء بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. واستاذ الأدب الانجليزي في الجامعة الاميركية؟ مر في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأت. ووفد الهلال الاحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. اعطني مزيداً من البيرة. اين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعل المرأة الجالسة، قبالتي، لاحظت ما أسرق من ساقيها ، فمدّدتهما ، سلطتهما على عطش رغبتي، وطلبت مزيداً من البيرة.



الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي.

قالت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ اما انا فلا اريد ان انام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول ان ينام.

قالت: نم، وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني ليلك... نظرتك الصافية، هل عرفين ان عينيك دفعان اي ولد شقي الى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا فعلان بالرجل؟

قلت: دفعانه الى الفروسية.

قالت: نَمْ.

قلت: هل عرف الشرطة عنوان هذا البيت؟

قالت: لا اظنُّ ذلك، ولكن الأمن العسكري يعرفه، هل كره اليهود ؟

قلت: أحبك الآن.

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن اسألك: هل حبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج الى اجابة اكثر من حاجتكم اليها.

قلت: هل انت حمقاء؟

قالت: قليلاً، ولكن لم قل لي ان كنت حب اليهود ام كرههم.

قلت: لا اعرف، ولا اريد ان اعرف. ولكنني اعرف انني احب مسرحيات يوربيدوس وشكسبير، واحب السمك المقلي، والبطاطا المسلوقة، وموسيقى موزارت، ومدينة حيفا، واحب العنب، والمحاورات الذكية، وفصل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، واحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج، اما اليهود فليسوا سؤالا للحب او المقت.

قالت: هل انت احمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل حب القهوة؟

قلت: احب القهوة، واحب رائحة القهوة.

نهضتْ عاريةً حتى منّي، فأحسست بوجع مَنْ خلعوا عضواً من اعضائه.

صمت: عالي فوراً، عودي من رائحة القهوة، فأنا ناقص، ولا استطيع لا استطيع.

- ماذا دهاك؟

- هل انتهى كلُّ شيء؟

- ماذا دهاك؟

- لا استطيع العودة الى نفسي.

(وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة).

- خذني الى استراليا.

- خذيني الى القدس.

- لا استطيع.

- ولا استطيع الرجوع الى حيفا.

- بماذا حلمين عادة؟

- عادة لا احلم. وانت بماذا تحلم؟

- بأن اتوقف عن حبك...

- هل حبني؟

- لا. لا أحبك... هل علمين ان أمك سارة قد شرّدت أمي هاجر في الصحراء؟

- وما ذنبي انا. ألهذا لا حبني؟

- لا ذنب لك، ولهذا لا أحبك... او أحبك.

- عزيزتي، جميلتي، ملكتي، الساعة الآن الخامسة والنصف صباحا، وعليّ ان اعود اليهم.

- لمن؟

- الى شرطة حيفا لأثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

- ثبت وجودك؟

- وفي الرابعة بعد الظهر.

- وفي الليل.

- يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

- واذا لم يجدوك في البيت؟

- سأكون مسؤولا عن اية حادثة قع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

- وما هي العقوبة؟

- مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل. اما اذا وقع حادث اكبر، فان العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

- وماذا ستقول في المحكمة؟

- سأقول: كنت هنا، أحيا نشيد الأناشيد.

- مجنون؟

- مجنون...

- ولا حبني؟

- لا اعرف.

(وكلانا يقتل الآخر حت النافذة...).



... وهناك، في الركن القصيّ، أرى الفرس الطالعة من مدائح العرب. فرس شاكس المجهول. فرس شاكس اللغة. فرس

نبثق من قطرة الضوء المتلألئة على حقل فتحه ذبذبةُ وَتَرَيّ
جيتار ينادي اعراس الفرسان القتلى. القباب والمآذن والابراج
والمدى تبع ظلّ العاشقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتر. سأدير
ظهري للخناجر كي ألامس طحلب المانجا واسقط في علو
الموت الشاهق محروساً بالنعناع والشظايا التي لا سمح لأحد
بالاقتراب من الفضاء المفتوح لخطوتين. الحب ان ترددي.
والحب ان اسخى بمزيد من حيوية الروح. والحب الا اسمع منك
غير الانين. للهواء ان يتحول الى مادة صلبة. وللبحر ان يهدد .
ولك ان لقي بعتاد الجسد الخائف الى اقصى الخوف لتأمن
هذا الباب الخشبي الهش. اصعدي مائة واثنتي عشرة درجة
كي يتصبب لهاثك صهيلاً يتعب وكي امسح العرق بجلدي
المنذور لهذا الواجب. سأدعوك «ج» لأنك مطلع الجنون،
ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشهوات المنتصرة
على حرب بجماع لا يتحقق الا في الخوف من الموت. دعي
ابنتك لعب من استاذ الكيمياء، وتعالي الى مرصد الصواريخ
لنرصد ما في الجسدين من قطط. قدمُك مصقولة كحجر
في شتاء الجبال، حجر يندس في خاصرتي لأصرخ نبيذاً من
خوابي الأديرة. ولا اصرخ كي لا ظنّي ان شيئا غير الحصار

يوجع. ولا أردُّ التحية لأني واطأت مع نفسي على رغبتي من اول خصلة شعر كسرتني. فللشهوة ايضا قناع، لتطول اللعبة عاما آخر. عبتُ من قناعي، ومن لعبتي، ومن عبك، فلا دقي بلاط الشارع اكثر بصهيل يحفزني. عبتُ من حوادث سير لا ليق بهذه الحرب كأن رتطم كتفي اليُسرى بكتفك اليسرى في قاطع صبيانيّ المشهد. ومن العار ان نموت حُبّاً في زمن الحرب. هل أحبك؟ لا أحبك اذا كان الحب يستغرق وقتاً اطول من اطلاق رصاصة على نخاع شوكي. وأحبك، اذا كان الحب امتثالا لصاعقة برق ضربني الساعة: عالي لنعرف الجواب. عالي نسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الاخير من العالم غير ان يعْتقا جِنّ الشبق من سجن الكلام والذهب. ومن الظلم ان نهاجر بلا التصاق. من الظلم ان نُرجع النظرة من منتصف الطريق الى عيون صب العسل على النار. عيناك جرحان الحجر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى اجمع هذا النمل واعيده اليك، الى بيت النمل، لأتوقف عن حكّ دمي بنظرات الساق على الساق. اخرجي من هذا الباب الى البحر، ثم انعطفي يميناً.. وامشي عشرين متراً ثم انعطفي الى اليسار ومنه الى اليمين ثلاثين متراً

بعدها انعطفي الى يمين آخر. هناك شجرة زنزلخت كبيرة، شجرة وحيدة ستدلُّك على ساحة صغيرة.. اقطعيها واتبعي رائحة الهال الى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحة الدم. اتبعي صوت دمي، واصعدي مائة واثنتي عشرة درجة. ستجدين الباب مفتوحا، وستجدينني خلف الباب مشويا من الانتظار، جاهزاً للموت واقفاً معك واقفاً فيك حتى يفصلنا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السلالم كما يدق كعبك العالي طرف القلب ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشارع. كم أحب الحذاء العالي لأنه يشد الساقين في كلية الانوثة المتأهبة للاندلاع. والحذاء العالي يختصر البطن ويفتح انحناءة لبطن ينكمس من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يصُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. والحذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاوية. والحذاء العالي يوقف الرمح على منبر من هواء صلب. دقّي بلاط الشارع بنفور غزال لا تلقفه ذراعان ولا كلمات. واتضحي رويداً رويداً خلف الباب المغلق. امام الباب مقعد جلدي صغير يحملنا ويتسع لنا. سأجلس أوّلاً

وتجلسين. فغرفة النوم مكشوفة من جهة البحر الذي يرانا، ويتوعد، ويقصف. وغرفة الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتبة مكشوفة من جهة البحر. ولم يبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا نزعي ثيابك لئلا يرانا الموت عاريين. فرس على حضن رجل. لا وقت لغير الحب السريع ونزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة.

أمن طبيعة الحرب ان خلق هذا الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت ان يتَوتَّر هذا التوتر؟ يدان خرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لاغراء الذئاب. وأُحب هذا الحب الذي لا ثرثرة فيه ولا اناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يُبدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب الى سيجارة دعي أمّل ما رسمه من دوائر الدخان الازرق. وننظر الى الساعة لا لنرى الوقت بل لنعرف متى يتسلل احدنا من الآخر. وأحب هذا الحب الذي لا يترك وجعاً في الذكريات ولا ندبة في الروح. حب يُزَوِّد الروح بهبوب الفراش على وردة الروح. لحظة عابرة ابقى وانقى جمالاً من

بيروقراطية الحب الطويل المحتاج الى ادارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والاغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمت معه الى غربة. عالمان لا يتداخلان بغير القمع. لا مساواة في العاطفة. عالمان يعودان - حين يصمتان - الى ما كان من ذكريات لا تصالح بقدر ما تصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج الى اعادة رتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنتُ احبه على ظلام صخرة على شاطىء بحر، او في سيارة ختبىء في غابة صفصاف، او في قطار ليل لا نعرف فيه الاسماء، او في رحلة طيران ليل طويلة، او على سياج ملعب يصفق فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات. ولكن الحرب ضفي صوفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما اجمل ان يموت الانسان على ضفة نهر العسل الحامض، بلا فضيحة وبلا عري وبلا اولاد. ما اجمل ان نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يوحد الجسدين. وما اجمل ان نُودِّع ايامنا على انتفاح وردة عرق وتشهق وتتمزق من احتكاك الندى

والملح، حت قصف جوي وبري وبحري نسوس فيه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحديد بعواء اللحم، والدم والعصب المشدود. فلا سأليني ان كنت أحبك ايتها الفرس الطالعة من مدائح العرب. ايتها الفرس التي ترجّل عن حضن فارسها لتذهب الى مهرتها الصغيرة، التي رعى بين الصواريخ واقداح البيرة واستاذ الكيمياء والممرضات النبيلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت احباطاً وغماً بالموت في قضية. لا سأليني ان كنت احبك، لأنك عرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد. خذي خبزاً وزجاجة ماء، لتقولي انك كنت بحثين، من ساعة، عن خبز وماء. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك لم ذهبي معي، كما ذهبت السوسنةُ الطالعة من نشيد الاناشيد، ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السونة هذا الفجر.



... والقصف يقصف كل شيء، يقصف حتى الخوف. افكر في هذا الركن القصي بهذا الشاب الباكستاني الغائب. ما

الذي جاء به الى هذه المدينة من آسيا البعيدة؟ كان يطارد الرغيف فاصطاده الرغيف في هذا الحصار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجزة الانسانية: رغيف الخبز، رغيف الخبز الذي قد يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حياً او ميتاً الى اي مكان، لا يعود الى اي قبر. باطل الاباطيل، الكل باطل. وافكر في الطرائق المعدة لنهاية جسد كافح حتى النضج ليحترق او ليختنق. باطل الاباطيل، والكل باطل. وقد علمتنا معاشرة الموت ان الموت لا صوت له. اذا سمعت صوت الصاروخ فذلك يعني انك حي، ذلك يعني ان الصاروخ قد اخطأك واصاب غيرك، اصاب العامل الباكستاني على سبيل المثال. الصاروخ يسبق صوته. ان لم سمع صوته فاعرف انك ميت. باطل الاباطيل والكل باطل. ولكن ما سر هذه المناعة؟ اشعر بنعاس لا يقاوم.. نعاس اقوى من اية قوة.. نعاس سلطان.

ولكن «س» يوقظني، اراه مدججاً بمسدس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. اين كنت؟ اين كنت؟ اجلس معي اذا استطعت ان وقف ثرثرة السيدة، او ارسلها الى اي جحيم.

- اين اختفيت؟

- على احدى الجبهات.

- ما هي اخبار الشباب؟

- صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. انهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس عبت ويقال ان صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح اننا سنخرج؟

- طبعا... سنخرج. ألم عرف اننا سنخرج؟

- كنت اظن ان الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

- سنخرج حقاً.

- الى اين؟

- الى اي مكان عربي يقبل بنا.

- ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

- بعضهم لا يقبل حتى جثثنا، واميركا طلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

- اميركا؟

- نعم... اميركا.

- هل عني ان هذا البعض يريدنا ان ننتحر ونبقى في بيروت؟

- هذا البعض لا يتحمل صمودنا. ولا يدعونا الى الانتحار أسوة بالكولونيل الليبي. ولا يريد لنا ان نبقى في بيروت، او في اي مكان على الارض، يريد لنا ان نخرج.. ان نخرج من العروبة ومن الحياة.

- الى اين؟

- الى العدم!

- ومتى سنخرج؟

- بعدما نحصل على عناوين للخروج. وبعدما نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.

- أهناك ضمانات؟

- هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات. ولكن السفير الايطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق، قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الاسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.

- ألا يمكن اخفاء فكرة الخروج، لأنها قد ؤثر على معنويات المقاتلين؟

- هذا صعب لأن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية

متلهفة بحجة انها طمئن المواطنين.

- ولكن، لماذا سنخرج؟

- لا أحد يوافق على بقائنا، لا الداخل ولا الخارج. ولا نس ان البلد ليس بلدنا. انتهت مُدَّة الضيافة. وبعض اطراف الحركة الوطنية يُهَدِّدنا، ولم يبق ما نعتمد عليه: لا مقومات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشد الناس قلقا من هاجس الخروج، فهو يخشى اليُتم الجديد، يخشى ان ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتّاب المهاجرين الى مشروع الثورة المتحول الى بيت وهوية. لا يملك ما يدل عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سفر، ولا شهادة ميلاد. ولهذا وجد فينا أهله ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين والعراقيين والمصريين والفلسطينيين قد انزل على بيروت معاني نهائية منح التباس العلاقة بها شرعية حق المواطن الى درجة اجفلت الكثيرين من اللبنانيين الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهم اكثر منا، ويعرفون انها لا حتمل هذا الاسقاط. وقد لاحظ بعضهم ان السهولة التي يوحي بها التعامل مع بيروت، نصاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت

هامشاً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان الذي شهد ازدهار التعبير السياسي والاعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على قديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع الى حد ارتكاب اخطاء لم ينجُ منها أحد، دون ان مكن أحداً من حديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا حولت العلاقة ببيروت الى ادمان جعل اللغة مجازية الى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد اشكال التدرب العربي على ديمقراطية متخيلة. فصارت بيروت مُلك من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب عويضي حلت في كل غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء الى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجىء الى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكك، بل أباح لنفسه حق

التحالف الداخلي لمواصلة فكيكه خدمة لمشروع ديمقراطي اكبر يخاطب خارج بيروت اكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسّ المقيمون في بيروت، في حالفهم مع اطراف قواها المتصارعة، بمقاييس اخرى للغربة والمواطنة حُدد فيها للبنانيين انفسهم وبمساعدتهم مقدار حقهم في وطنهم، لأن الوطن حول من جمهورية الى مواقف. وفي الشعر ايضاً، لم يكن عُشّاق بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم ينشدوا لبيروت. كانت اغنية الحب الطالعة من الحرب «بحبك يا لبنان». لقد م استثناء بيروت لأنها لم عد بيروت لبنان. ليست بيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربة يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل ان ينأى بلبنان الجمالي الى اقصى غابات العنصرية، ليرى ان الحرب لا دور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل انها حرب ضد شعب بأسره، «الطفل الفلسطيني عدو».

«س» وآخرون كوّنوا بيروتهم، صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفض عنهم حلفاء الثقافة وجدوا انفسهم حت العراء.

لقد سبقت الغزو الاسرائيلي عودة الكثيرين من المثقفين الى اصدافهم الاقليمية، عبيرا عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف الى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جرت اعادة اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، الى بطل منذور لسائر المعبرين عن طوائف اخرى حتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، الى ايوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن اتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب الى دولة، واحتاج الخائفون الى اية دولة. فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم ينقصها غير فرقة الرقص الليبي المحاطة بدويّ اعلامي صاخب. ولم يتساءل أحد عن المغزى السياسي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سجل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشروع الديمقراطي الى الصَدَفة الطائفية، حولونا الى «سُنّة»، وانهالت علينا الحملات والتهديدات

من الشعراء والرسامين والمسلحين الذين اعتبروا نقد عودة المثقف الى الطائفة شهيرا منا، كمعبرين عن طائفة، بطائفتهم. وحين كنت اقسم بأنني لا اعرف ما هي طائفتي لم يصدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشرى، ولأن اي فهم لما يجري في لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسس المسدس. اما انا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في برئة نفسي من جريمة القول اننا «جزء... لا جزيرة».

«... والتجربة مفتوحة على حوار الابداع والافكار. فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الابداع في الثورة، والثورة في الابداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام الى المناداة بالاختلاف، او الخلاف، بين مفهومي الثورة والابداع، حيث يحاول احد اطراف هذا الميل حقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصافي»، ويحاول الطرف الآخر جر الأدب الى قديم الخدمات اليومية المباشرة للبرنامج السياسي. نحن نتاج هذا الواقع وهذا الزمن الذي ختلط فيه الانهيارات الواضحة بالولادات

الغامضة. ولا نتوب عن احلامنا مهما كرر انكسارها، ولا نواجه الازمات التي لتف حولنا باسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث، لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط، فقد اخترنا ان نعتقد ان المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير. ولا يأتي من ماض يتحول في الأزمات الى سيد الايام. وحين نلاحظ ان الثورة لم كتب بعد أدبها الا بالجسد، فاننا ندرك ان معادلة الفعل - القول - المترابطة في سياق التجربة نضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك اننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل ان يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيقة. بل ميدان العلاقة الاعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السر العلنية حتى الانفجار العام. اننا لا نؤسِّس ياراً في الأدب بقدر ما نشير الى سياق او مجرى كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلا من الاشكال، في وقت يتعرض فيه الى اكثر من محاولة فتيت او وأد، وهي الثقافة المفتوحة على اريخها في عدد مصادره. وهكذا لا نقول ان الشرق شرقي كله، ثقافياً، وان الغرب غربي كله. فنحن لا

نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً ، ولا نريد ان نُحبَس في معنى لم نختره بحرية. وهكذا لا نتعامل مع حملة التصدي للغزو الثقافي الغربي الرائجة في هذه الايام، بعدما اطلقها كراس او كراسان، الا بقدر ما ستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر غلق علينا الأفق كله، وبقدر ما وضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معا. وحين نرى الى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي او الاسبوعي او الشهري، فاننا لا نعلق: هنا الأزمة فاهربوا... بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، وننتبه... ننتبه الى اسلحة الأدب القادرة على اخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الاحلام حت غطاء الاشمئزاز من السياسة، اي من الصراع. لا، لسنا غرباء على اية ارض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون الى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن اريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى فيها اللص غير وجوه اللصوص. واذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فإننا لا نرضى الاستقرار في فوضى التجريبية التي لا ريد ان قول اكثر من جريبيتها. واذا كنا

نشكو التقصير من القدرة على اتقان لغة الناس، في العملية الابداعية، فان ذلك لا يمنعنا من الاصرار على التعبير عنهم لنصل الى لحظة يحقق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصوت العام. نعم، ان للأدب دوراً.. وان انقطاع التفاعل بين النص وبين الذين يتحول النص – فيهم – الى قوة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق له الآن المبشرون بالهزيمة النهائية لكل شيء،. وهنا نستصرخ النقد، نستصرخه ليسترد الايمان بشجاعته وجدواه، نستصرخه ليدخل الساحة المستباحة، نستصرخه ليرسي المعايير التي اباح غيابها للجهل وللثورة المضادة ان يتبطّنا في ادعاء الحداثة. ندعو النقد الى اعادة النظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كلها ووصلت الى مفترق طرق اعلن، على الأقل، انهيار وهم وحدتها السابقة. وندعوه الى مزيق حصانة النص الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّل نفسه بكل ما هو خارج ادعائه من حمولة ايديولوجية يحتكر اخفاءها، ويحرم الناقد او القارئ من حق اعلانها. ولنسأل عن دكتاتورية النص. لقد اوصلنا الحياء او الجهل الى درجة صار معها التقدم يخشى

الاعـلان عن نفسه. وادنـى من ذلـك: صـارت سلامة اللغة خلفاً، واستقامة الوزن رجعية. وصار الوضوح عورة. وصار القول ووصـول القول همجية. وباختصار: قدمت الرجعية، القادرة على الوقوف يساراً بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستطاعت ان ستدرج الآخرين الى اسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العربية الكبيرة، وعودة ابناء الطوائف الضّالين الى طوائفهم، او صوفهم، او رموزهم، معلنين التوبة عن عمر اضاعته حركات التحرر التي لم سفر الا عن صعوبات لم كن متوقعة، واضاعته الثورة التي دلت على انها باهظة التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية اغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والاعلامية، غير مكترثة باعلان فارقٍ جوهري بين مستوياتها وايديولوجية مصادرها، لأن دمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة. هكذا تحدد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر او مُحوّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا فتقر الى اسباب الافادة من فشل «رجعيات التقدم». وحين نكتب ونستكتب حت شعار حرية الابداع، فاننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرة أبسط مقوماتها:

اننا نريد ان نحرر انفسنا ، وبلادنا ، وعقولنا ، وان نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فاننا نعبر عن ايمان بفاعلية الكتابة. من هنا ، لا نشعر اننا أقلية. نعلن - اننا الأقلية- الأغلبية. ونعلن اننا قادمون من هذا الزمن... لا من الماضي ولا من المستقبل».

لماذا اصابهم هذا الكلام بالهستيريا ؟

لأنهم يريدون لنا ان نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: الى اين سنذهب؟

قلت: لا اعرف، ان هناك ضابطا في غرفة العمليات لتحديد العناوين واسماء المهاجرين.

قال: رُبّما ينسونني.

قلت: رُبّما.

خاف، خاف الى درجة نهر معها امرأته الثرثارة التي عرف كل شيء، وتمتلك جواباً لأي سؤال: اخرسي! قالها بانجليزية كُردية جعلتها صمت لمدة عشرين ثانية كاملة، واصلت بعدها ثرثرتها. انها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. انها اقسى من حصار. كان يطفىء اسئلة ضياعه في وهم

غرابتها. كان يستوطنها قارباً او ملجأ. كان ينتمي فيها اليها، الى ما يُسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف اين هو.

وجدت له حلا: ابق معي.

استبشر خيرا: اين؟

قلت: هنا في بيروت.

صاح: هل انت باق؟

قلت: نعم، باق.

قال: ولكنني لا احمل جواز سفر ولا بطاقة هوية. مُزَوَّرَة كل اوراقي مُزَوَّرَة. فكيف ابقى، والى اين اذهب؟

قلت: اين ريد ان ذهب: السودان، اليمن، سوريا، الجزائر؟

اختار: الجزائر.

قلت: سترحل الى الجزائر.

قال: هل علم انني لم اسافر مرة واحدة في حياتي؟

قلت: ستسافر كثيراً، يا بني، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير نطق شعراً.

– بالمناسبة، اين المثقفون الغاضبون منا ؟ لم نسمع اصواتهم منذ بدأ الغزو؟

– لقد ذهبوا الى الجنوب.

– ليقاتلوا الغزاة؟

– لقد اشتاقوا الى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء ارض محتلة، او شعراء مقاومة.

– ألا يزالون يعانون من هذه العقدة؟

– ولن يخلصوا منها.

– اذن، لماذا يحذفون المثال؟

– ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلوا.

– هل توقع حولاً في كتابتهم؟

– لا اتوقع شيئاً.

– ولكنهم ابرياء وطيبون.

– وأسرى نموذجيين متناقضين.

– سيكبرون في التجربة.

– في الطائفية لا يكبر أحد.

- ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون، والطائفية موجة حماية عابرة.

- اذن، لماذا يستقوون علينا.

- لأننا غرباء.. ولأن الدولة بدأت عملية كوُّنها. سينتخب الاسرائيليون بشير الجميل رئيسا للدولة.



... يا سيدة لبنان، احفظيه لكل لبنان - الدعاء الخافت ينتشر كالخيمة النبوية، كالسقف مرفوعاً على ابراج الدبابات الاسرائيلية. والعادة الاسرائيلية السرية تحول الى زواج علني. والاسرائيليون يتمددون على شاطىء جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من الحلوى، ويدعو الى وقيع معاهدة سلام، او جديد المعاهدة القديمة بين اسرائيل ولبنان. ويعاتب اميركا: لقد اهديناك لبنان..

ما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

ان بيغن لا يعيش في زماننا، ولا يتكلم لغتنا. انه شبح قادم من عهد الملك سليمان، وهو العهد الذهبي في التاريخ اليهودي العابر على ارض فلسطين، حيث «جعل النقد في

اورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة. وزَيَّنَهُ بخشب الارز والصندل والفضة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكي من العاج المطلي بالذهب. وابرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمده بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السمك في البحر الابيض المتوسط.. سليمان يبني المراكب وحيرام يُقدِّم له الملاحين. سليمان يبني الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصك الاسلحة. وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين».

بيغن يتقمص سليمان، يتخلى عن مزايا سليمان، عن حكمته واناشيده ومصادره الثقافية، ولا يأخذ منه غير العصر الذهبي المرفوع على دبابة. لا يتعلم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً. وازداد الاغنياء غنى. لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. اين ملك صور؟ اين ملك الاشرفية؟ بيغن يُجمّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل الى نهاية الهيكل الذي لم يبق منه سوى حائط للدموع، حائط لا يدل علم التنقيب عن الآثار على انه أحد

ابنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكُل شيء بقي على حاله في وعي ملك الخرافة.. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين، وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم ابن سارة ابن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، بالتحالف مع ملك الاشرفية بشير، ابن بيير، ابن جميل...



فدائيون من حَبَقٍ وحُريّة

ومنذورون للجمرة

على قرميد أغنيّةُ

وشهوةِ شارعٍ صاعدْ

على أُسطورةٍ حُرّةْ

هي الثورة،

هي الثورة...

خنادقهم هواءُ البَحرْ

وظِلّهُمُ يَشُقُّ الصخرْ

نشيدُ نشيدهم واحد:

فإمّا النَصرْ

وإمّا النَصرْ

ومنهم ُولَدُ الفكرة

هي الثورة،

هي الثورة...

وُلدنا فوق أيديهمْ

كما تفتحُ الزهرة

فكمْ مَرّة

وكم مَرّة

سيُولد في ابنه الوالدْ؟

وتحملُ غابةً بذرة

هي الثورة،

هي الثورة...



... وفي ساعات العصر هذه، تدلى السماء اكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد. سماء صيرالى يابسة. ولا ستطيع المبارياتُ الاذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، ان شير الى شيء والى مشترك، لأن الصوت قد انفصل ماما عن مصدره، رحل عن أرضه الى جريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت حوِّل الحرب فيه كل شيء الي فاصيل. أحبك يا لبنان – اعلان لا صفق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة في ثلاثة شوارع. وبيروت لا بدع غناءها، فذئاب الحديد المتوحشة نبح من كل ناحية. والجمالُ المُغَنى له، المعبود، ينتقل الى ذاكرة شتبك الساعة بأنياب النسيان الفولاذية. الذاكرة لا تذكر بل ستقبل ما ينهال عليها من اريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا يناسب مقام الساعة – جمالاً مأسوياً؟ وطن ينهار ويُرَقِّم في حوار الارادة البشرية والحديد، وطن

يرتفع على حنجرة طل علينا من السماء، حنجرة وحيدة وحد ما لا يتوحَّد، وتؤلف ما لا يتآلف. هرب الكلام الى البعيد. أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت صوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصر هذه، يعجز البدن عن حمل اعضائه، وتعجز الروح عن الطيران. تكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن بادل النظرات. آب بيروت لا نقصه نار جديدة. خلفنا مدرسة حولت الى مستشفى. حوم الطائرات بشراسة حول المستشفى. قال استاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً، فلنهبط الى الطابق الاول. كان من الصعب ايقاظ «غ» فهي نائمة منذ شهر. ظننتُ انها مريضة في الكبد. ولكنهم قالوا ان الخوف الشديد يدفع الخائفين الى النوم العميق، النوم المتواصل. انها نام وهي نائمة، صحو وهي نائمة، مشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الاول اكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا حت الانقاض. زايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها، قلت لاستاذ العلوم

السياسية كي نخرج مما نحن فيه: اظن، يا دكتور، ان الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن.

قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. واوشكت جربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء.

قلت: ومن اين بدأ المرحلة الجديدة؟

قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا ان نواصل طوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا ركيب جملة كاملة. وكان علينا ان نُعيد ركيب عناصر جربة تعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله القديمة ويفاخر بجذور عرضت للاقتلاع منذ اربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجس انشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الاوسط يكون مقرها لبنان. ان طعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه ان نعتدي على اغلى احلامه، فيتحول الى كتلة من الاعصاب

للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورع بعض الطلبة عن هديد الاساتذة بالسلاح، للحصول على علامات افضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان مدججين بالمسدسات. كم من شكوى لقيناها دون ان يتمكن احد من معالجة المشكلة بسبب اختلاط الهوية التنظيمية. وقبل ذلك كان الخناق يضيق حول الطلبة الذين لم يجدوا جامعات عربية لاستيعابهم. وكنت امازح الدكتور: أفي مثل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان، وُسِّس جامعة مفتوحة حتاج الى استقرار اجتماعي ومستوى ربوي آخر؟ ولكن الدكتور كان شديد الايمان بنجاح الفكرة، وبالأداة. كان يرى الى واقعنا من بعيد. ومن بعيد خفي الظواهر فاصيلها وتقدم السطوع.

- ما هو مشروعك الآن؟
- سأعود الى شيكاغو.
- والجامعة المفتوحة؟
- أُغلقت..

دخل علينا الاميركي الذي يظهر حين ينبغي له ان يختفي، الاميركي السعيد بما يرى، الشاهد على ما لا يتوفر لسواه

من نعمة التجربة. حرب وحصار. أهنالك ما هو اكثر اثارة لاميركي يلهث وراء أية مأساة بكاميرا ودفتر وزوجة من هذا الموت؟ سميته الـ «كوسمان» لأنه عاشق القضايا الساخنة. ولم اطمئن الى ما يُبدي من افتتان بحرب مدُّه بثروةً اعلامية. كان علينا ان نموت اكثر ليعمل اكثر، ولينتشي بمعايشة الضحايا. جاء من نيويوك، خصيصاً ليتفرج علينا. لم يكن صحافياً محترفاً يركض وراء الخبر لخدمة المهنة. كان هاويا يصور المآسي بعدسة كاميرا لفزيونية وعلى اشرطة سجيل.

- ما هو شعورك؟

- عكس شعورك.

- ماذا قصد؟

- ماذا لا قصد؟

- هل ستعترفون باسرائيل؟

- لا...

كان الدكتور قد استدعي الى القيادة ليشارك في صياغة عبارات قانونية غامضة داور حول هذا السؤال الذي كان يشارك في القصف... عبارات غامضة حول قرارات مجلس

الأمـن. كانت الضحية مطالبةً بالاعتراف بحق قاتلها في قتلها. كـان المطمورون حت الانـقـاض مطالبين باعلان شرعية قاتلهم. لم كن الفرصة مواتية لمثل هذا الاغتصاب السياسي، بقدر ما كانت الساديَّة أسراباً من الطائرات. لأول مرة يُطالَبُ غيابنا بالحضور الكامل: الحضور من أجل غييب الذات، من أجل الاعتذار عن فكرة الحرية. من أجل القول ان غيابنا حقّ. من أجل زويد حق الآخر بحق قرير مصيرنا . الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضور قليلاً من أجل اعلان حقّه في دفعنا الى الغياب النهائي..

- لماذا نطالب، الآن، بالاعتراف؟

- من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

- الغريق لا يحرص على جريان النهر، المحترق لا يحرص على بقاء النار مشتعلة، والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة.



كنت احمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضَّ عليَّ حرف «الهاء» الخائف، الخائف أبداً، في السلم والحرب، الخائف

من أيِّ شيء: من ليلة بلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيانو، من شهر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كما نقضُّ التهمة على لص: متي خرجون... متى خرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: عنين البطولة العبثية؟

قالت: لا فرق. أما زلتم صدِّقون؟

قلت: نُصدق ماذا؟

قالت: أي شيء. اخرجوا... اخرجوا كي عود المياه الى انابيب البيوت.

هي دائما هكذا: عصبية، شقية، ذكية، غبية، وجذابة كعصفور الدوري. قدِّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُل عاشق من فرط رهافتها ودعتها المتجددة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربي موجات بطنها لاغراء اسراب الحمام. ندفع وتتراجع. لعق بلسانها قدم العاشق، غسل جواربه وقفاه، حلق له ذقنه، قدم له النهار على طبق من كستناء، وتقدم له الليل على سرير من فُلّ. وسرعان ما سخر من اندفاعها وأوهامها: أخطأت. انه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها، انا

وأهلها، ونُسمي طباع خيبتها «جورج». هل ذكرين جورج؟ فتقفز من وجهها الطفولي لتعضنا واحداً واحداً، نحن نواصل الضحك وهي واصل كسر الاطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفها من الطائرات حين جعلها قفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس.

ابوها يبكي على اي انسان يموت في اي مكان. أمها صلي لسيدة لبنان ليحمي بطلها لكل لبنان. وأختها عدُّ الطعام لولد لا يشبع، وتنتظر خط الهاتف للاطمئنان على الشاب الفرنسي. وأنا أواصل الاعتذار عن وجودنا في بيروت.

- متى خرجون؟

- حين يوقفون القصف، ويصبح طريق الميناء آمناً، اهدئي يا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

- الى متى مضون في شيء لا يوصل الى شيء؟

- خذي عنقود العنب. وابحثي في الجريدة عمَّن مات. انهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا انتاج موتنا.

- هل ستذهبون وتتركون لنا شهداءكم؟

- اذا استطعت ان عيدي اليَّ ما في دمك من دمي، فسنأخذ معنا شهداءنا الى البحر.

- لا اقصد، لا اقصد ان أجرحكم.

- وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيروز عن بيسان.

- لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

- وسنأخذ معنا خبز الكلام.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غايات القصائد.

- لا أقصد ان...

- وسنأخذ معنا آثار المطر المتجمد على خطى حاولت ان سمِّي الوقت.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- وسنأخذ معنا ما استطعنا ان نراهُ من هذا البحر. سنأخذه معنا الى البحر.

- لا أقصد ان...

- وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المفروك وهاجس الحبر.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة...

- لا أقصد ان أجرحكم.

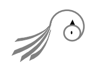
- وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أُسطورة، ومطالع الصلاة.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.

- لا أقصد ان أجرحكم.

- لن نأخذ معنا شيئاً، خذي سريري ومكتبتي وحبوب نومي، خذي غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب... خذي الغياب.



هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ ايام. ولم يعد في مقدور الطائرات ان خيفني كما لم يعد في مقدور البطولة ان طربني. لا أحبُّ أحداً ولا أكرهُ أحداً ولا أريد أحداً ولا أحس بشيء أو أحد. لا ماضٍ لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي ان اخجل من دمعة أُمي ولا أن ارتعش من قاطع حلمين وُلدا في لحظة واحدة عند الفجر.



لتكُن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني.. يا ليتني
أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني
لم أمُتْ بَعْدُ، ولا اعرف هل اكبر يوماً واحداً
كي ارى ما لا يُرى من مُدُني
لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها

حائط يبعدني عن شجني

ولنا البحرُ اذا شاءت، وان شاءت فلا

بحر في البحر، هنا أسكن فيها رايةً من كفني

وهنا أخرج مما ليس لي

وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني

ولتكن بيروت ما شاءت، ستنساني لأنساها

أأنسى؟ ليتني... يا ليتني!

أستطيع الآن ان أُرجع مني وطني

ليتني اعرف ماذا اشتهي

يا ليتني

ليتني!



غروب للغروب. ندفع كُتَلُ الغيوم السود المعبأة بالبارود نحو حافة البحر. حمل الطيور عبها وتحوَّم باحثة عن بقعة آمنة لا طاولها اجنحة الطائرات. غروب يدلُّنا على ما فينا من عب. ينهال علينا الظلام والفحم والقنابل ليشتاق الجسد الى جسد

يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت؛ شوقاً معدنيّاً آليّاً لا خترقه عصافير سرية ولا نغم بعيد؛ شوقاً مقطوعاً من شجرة الطارئ كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فُستق مالحة، أو إلى أي صوت صادر من راديو..

الى اين اذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج، سئمت لك الثرثرة هناك. وهناك شرفة الشاعر الذي رأى سقوط كل شيء، فاختار موعد نهايته. أمسك خليل حاوي بندقية الصيد، واصطاد نفسه، لا ليشهد على شيء، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء. لقد سئم هذا الحضيض، سئم الاطلال على هاوية لا قاع لها. وما الشعر؟ الشعر ان يكتب هذا الصمت الكوني، النهائي، الكُلي. كان وحيداً، بلا فكرة، ولا امرأة، ولا قصيدة، ولا وعد. وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أيُّ أُفق، أي نشيد؟! لعبت معه «طاولة الزهر» منذ اكثر من شهر، لم يقل لي شيئاً. لم أقل له شيئاً. جلسنا ولعبنا لعبة لا ذكاء فيها ولا مناورة. الحظ هو الذي يلعب. وعلى الحظّ ان يطيع خليل حاوي، وإلا غضب على الحظ وعلى شريك اللعب. كان يعنيه كثيراً ان ينتصر، عكس الشاعر «أ» الذي ينتصر ويبتسم وينهزم ويبتسم، لأن ما

يعنيه وما يراهن عليه يقع خارج هذا اللعب. لذلك يفتقر اللعب معه الى شيء من الحماسة، عكس خليل حاوي المتحمس، المتوتر، اللاعن الطاعن في الهجاء. لا أريد ان أطل على شرفته. لا أريد أن أرى ما فعله نيابةً عني. لقد خطرت الفكرة إيَّاها على بالي وتراجَعَتْ او راجعْتُ. وقريباً من هذه الشرفة، بعد أربعة شوارع حت، سقط شاعر آخر منذ قليل، شاعر سمَّى نفسه الذئب والغجري وسيِّد الرصيف. كان يوزِّع هويته الشعرية «الرصيف» عندما أصيب بقذيفة. كان عدو المؤسسة، أية مؤسسة، وكان ينشىء مؤسسة الرصيف، كان ينشىء مؤسسته. ولكن منافسه على الرصيف، خصمه العنيد «ر» يقول باعتزاز: انا قتلت علي فودة. كيف قتلته؟ سألناه. قال في هدوء عقلاني: سلَّطتُ عليه كراهيتي. كراهيتي هي التي قادت القذيفة الى بطنه. انا الذي قتلته. ألست نادماً؟ سألناه. قال: لا. انني أكرهه حياً وميتاً، وأستحق التهنئة.



الى اين أذهب في هذا الغروب؟ قادتني خُطاي في ضوء الطائرات والقذائف الى منزل «ب». يبدو لمن لا يعرف

«ب» انه يقود هذه الحرب كلها، من الجهة العسكرية الى المفاوضات الى الاعلام. حيوي، فتيّ، شقي. وجد في هذه الحرب لعبته الضائعة. احدى يديه على الهاتف، يصرح بما يعرف وبما لا يعرف، ويده الاخرى كتب الأوامر والتعليمات والتوصيات. ينظم عشرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّةَ نحل في رجل كرَّسته الأقدار للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَم لا يتكلم. صنم يُهْتَفُ له. يُسْجَدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسمه «أ» قادر على صوّر شكل العالم بعد نصف قرن من الزمان. أفكاره المبنية على منطق شكلي سينمائية الاثارة. يتكلم عن الدول الكبرى والصغرى كما يتكلم عن شوارع بيروت، بلا كلفة وبلا ردُّد. واذا صَدَقَتْ آماله فهذا يعني ان هذا الشرق سيُحاصر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أوافقه على هذا الاحتمال باعتباره حداً أقصى لتطور التدهور، باعتباره أحد أشكال الكارثة القادمة. ونختلف الى ما لا نهاية حين يرى ان ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وان في وسع ظلام ان ينتصر على ظلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أصدِّق ولا أريد أن أصدق، ان اريخ

هذا الشرق سيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى ابداعية. مهما انفصلت شعارات السياسة الحديثة عن مبادئها ، ومهما خلص الخطاب من مضمونه، فلن اتوقع غيير العرب وتطوير العرب من غير العرب. ولا أرى ان ذلك النموذج المعد لاغراء اليائسين من العصر بالايمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة الى الصراع على اسئلة لم عد اسئلتنا. ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ اذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي..

يصرُّ «أ» و«ب» على اننا لن نخرج، لا لأنهما يفتقران الى المعلومات وخبايا المفاوضات، بل لأن فكرة الخروج من بيروت ُشبه فكرة الخروج من الجنّة او من الوطن. كان يصعب على من شارك في صياغة التجربة وشهد نمو بدايتها المرافق لنموّه الشخصي ان يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضية، لنفترض ان موازين القوى اخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو اسوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسساتي الكثيف؟ هل أصابنا نوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ اكثر من مرة، فالى متى نعتمدُ على النجاة؟...

و «م» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفىء. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتوّ، من كابوس. لا يراه أحد وهو يدثر بالصمت ويرد عنا أمواج البحر المتلاطمة في الغرفة. هل رى ما لا نرى يا «ميم»؟ يرد: وهل رى ما لا ارى يا «ميم». خفت: هل رأيت حلمي. لم كن انت في منامي. قال: لم اكن في منامك، ولكن هل رى ما لا ارى؟

هدأت اصواتهم ليتأكدوا من أننا أصبنا بالجنون..

أخذني الى الشرفة: هل شقَّتُكَ آمنة؟ سألت. ماذا عني؟ قال: هل صلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا ام ضدنا؟ قلت: البحر ضدنا. قال: هل عني انك خشى على سفينته؟ قلت: اعني ان واجهة شقتي زجاجية ومفتوحة على قذائف البحر. قال: لا صلح ومن الافضل ان ينام الليلة ايضا في كراج للسيارات او على الطريق.

هبّتْ رياح الجنة. لقد استعد لكُل شيء، وابطل وقيعه. لم يبق على المسرح احتمال لدخول شخصيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه امام القضاء والقدر. هل كانت التراجيديا اغريقية ام شيكسبيرية؟ لقد زُجّ بكل عناصر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَحِّي بالطفلة الرهينة بيروت ام يخرج الى

ما لا يعرف؟ هل يموت هنا في انفجار عظيم لتُشهر الفكرة نُبوَّتها، ام يُنقذ هذا البناء على السفن؟ لم يبق هنا شيء يُحرك ما هو خارج البحر والسور. وانفضّ العالم من حول المشهد. وحيد... وحيد الى ما لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البداية دون ان يدري. هل جاء متأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقاب في حقول البترول؟ وحيد كمقطع في نشيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصرخة القلب في برية..

بعض الجمعيات الدولية يُعِدُّ لنا الخيام لمواجهة الشتاء القادم، فنحن ما زلنا - في وعيهم - لاجئين يستدرون العطف ويخافون الشتاء. واميركا حتاج الينا قليلاً، حتاج الينا لنعترف بشرعية ذبحنا، حتاج الينا لننتحر لها، امامها، من أجلها. والقبائل العربية قدم لنا الدعاء الصامت بدلاً من السيوف. وبعض العواصم يمجد بطولاته فينا وينكر دمنا، فلا اسم لمن يقاتل حول المطار. وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.



هبّت رياح الجنة، فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟ لن يقول...

سألت «م»: أي بحر ستسلك؟
قال: البحر الابيض، ثم البحر الاحمر.
قلت: لماذا انت بعيد. هل كنت في منامي أمس؟
قال: لا اعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسه. الصنم إيّاه. والغارات هي الغارات. دخل حارس البناية ليبلغنا ان شخصاً غريباً يدّعي انه صديق قديم قد جاء لزيارتكم. فوضع كل رجل يده على مُسَدَّسه لاستقبال ما يسفر عنه الباب من غموض. وخبّأنا الصنم في الحمّام. ولكن الزائر كان عزالدين قلق بتوتره الضاحك. سألناه: كيف وصلت؟ قال: كما وصلتم وصلت. لم يتغيَّر فيه شيء، بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر اليك بريبة من يقابل غريباً لا يعرفه. قلنا له: اطمئن يا عز، فان «م» من غرفة العمليات..

كنا نتكلّم معه بلا دَهَش، كأنه مسافر عاديّ قادم من باريس. كان يواصل حضوره بيننا ويشاركنا عملية الانسلاخ الجماعي الكبير عن هذا المكان. نسينا انه غادرنا الى الأبد منذ عشر سنين، وان الموتى لا يزورون الأحياء إلا لإثارة التأويل. ولكن عزالدين بيننا بلا جلبة ولا فزع.

سألته عن احواله هناك في الآخرة. قال: انها عادية ولا جديد حت الشمس. قلت: هل هناك شمس؟ قال: نعم، هناك شمس. سألته عن المناخ فقال: انه حار ورطب لأن المناخ في آب حار ورطب.

سألته عمَّ اذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال: انهم يتابعون الاخبار، ساعة ساعة، على شاشة التلفزيون. ويتألمون من الغيظ لعجزهم عن قديم اي عون لنا. سألته عمّن وصل اليهم منا لعلّهم قدموا لهم شهادة حيَّة عما يجري. قال: لم يصل الينا أحد. قلت: وقد نسفوا مقبرة الشهداء، فهل نجا أحد من الشهداء وجاء اليكم؟ قال: لم نقابل أحداً منهم. وسألته: اين قيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مستغرباً: ماذا عني؟ قلت: من اين جئت: من الجنة أم من جهنم؟ قال: جئت من هناك... من الآخرة. حدَّقت فيه مليّاً لأتأكد من آثار عنوانه على جسده، فوجدته طبيعياً وعادياً، كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامات للنعيم. أهذا كُل شيء يا عزالدين... أهذا كُل شيء؟ هل زوجت؟ قال: لم أجدها بعد. مَنْ لا حظّ له في الدنيا لا نصيب له في الآخرة. سألت: وكيف قضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد... من المكتب الى

غرفتي في الحيّ الجامعي، ومن قاعات المحاضرات الى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أسافر في القطار من باريس واقفاً، وحين أطلُّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة، وحين ادخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع اشكال الخبز، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام. التفتنا الى «ب» فلم نجده.. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعز: أما زلنا، قبل التكوُّن، في حاجة الى الاوهام لنتكوّن؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة التكوُّن في حاجة الى اصنام يعبدها بحثنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا، في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكرة مع الاطار، في حاجة الى حبر فاسد، والى أدب مبتذل لنقول اننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: اذا كان الجواب عن ذلك هو يبدو ذلك، فلماذا نخرج من بيروت الى الفضيحة... ودواليك؟

قال: لا اعرف.

قلت: كيف فكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما فكرون هنا.

قلت: يا عزالدين، ماذا فعل هنا. ألم ُقتل؟ ألم اكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق. هل أنت حيّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عزالدين، لنفترض انني قلت لك اننا أحياء، فهل انت ميت؟

قال: مثلكم.

قلت: يا عزالدين، لنفترض انني قلت لك اننا موتى، فهل انت حي؟

قال: مثلكم.

صحت: يا عزالدين، ماذا ريد مني؟

قال: لا شيء.

قلت: اذن، دعني وشأني.

قال: آن لي ان اذهب.

قلت: الى اين؟

قال: من حيث جئت.

قلت: ابق معنا قليلاً... سنخرج معاً.

قال: انتهت اجازتي، وعليَّ أن أعود.

قلت: من أين جئت؟

قال: لا اعرف...

صافحنا واحداً واحداً، ولكنه خصّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منا قليلاً. عانقناه على الباب... حيث لاشى كخاطرة شاردة. نظرت الى الدرج فلم أجده، نظرت الى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في أي مكان. نظرت الى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً، لم أجد أحداً. عزالدين اختفى.

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عزالدين.

قالوا باستهجان: من هو عزالدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته دقُّ الدرج!

نظروا اليّ كما ينظرون الى ممسوس. أشرت الى مقعده المسكون بطيْفه: هنا. هنا.. كنتم تحدثون اليه. كنتم عانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة.

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟



البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلمنا الى الخريف. فالى اين يأخذنا البحر؟

القصة إياها، لا اكتبها ولا انساها. غصَّةُ الكتابة وحرمانها الأبديّ، قصة الرجل الذي جلس سبعاً وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطىء صور. أما آن لها ان عتقني؟ أما آن لها ان أخذني معها الى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا

اليوم، سأنسخها مرة اخرى لأتدرّب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر.

تعبتُ من كثرة ما سألتُ هاني: كيف نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه؟ ومتى أخذني الى الصخرة التي هبط منها كمال الى البحر؟

تساءل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي اسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطىء صور، في انتظار حمامة ظهر من الجنوب الغربي حين كون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئا، لا شيء، غير لك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرَّه الباقي. وحين كان اصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون او يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم او بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر الى الحمامة. ولم يكن بامكان الطائرات المغيرة او جنازات الشهداء ان سلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال الى العائلة.

سألت هاني: هل عيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟
قال: ان كمال يعتقد انها عيش من الأزل الى الأبد.
سألت: ولماذا لا يصطادها؟

قال: لأنها لا طير، ولأنه لا يستطيع الوصول الى بُرجها. واخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعةً واحدة: لماذا أتعبك وأتعب صدري؟ فالمسألة لا حتاج الى كُلِّ هذه الاسئلة:

الحمامة هي حيفا.

... لأن جبل الكرمل المنبثق عن صعود البحر الى السماء وعن هبوط السماء الى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مُطوّقاً بقبلة مجبولة من حجر وشجر، أعني حيفا، تقدَّمُها شهوة حادة في شكل منقار مُلَوّن يشهد على ان في مقدور موجة جامحة ان تحجَّر من الأزل الى الأبد. لأن الأمر كذلك فإن حيفا شبه الحمامة. وكل حمامة شبه حيفا.

ولكن ما لم يدركه كمال هو أن المدينة طير... طير في دمه. وكمال ينطوي على سرِّه، يلتف بذكريات صارت أحلاماً.

يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به، كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمٌّ الآخرين او صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون ان عنيه او كون حروبه، طالما لم أخذه شظيةٌ واحدة من شظاياها الى... الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني. هل عرفته شخصياً؟ هل رأيتهُ في صور؟

يتردد هاني في الاجابة، فأعرف انه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعرف البحر من يراقب البحر. لا يعرف البحر من يجلس على الشاطىء. ولا يعرف البحر من يأتي اليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحر الاّ من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كما يتلاشى في امرأة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. وهناك عثر على عالم لا قبض عليه الكلمات. لا يُرى ولا يُلبس الا في اعماق البحر. البحر هو البحر.

- لا أُحب شعرك يا هاني، حدثني عن كمال، لا حدثني عن نفسك!

لا يستطيع. منذ ثلاث سنين وهو يروي قصته مع بحر صور.

ولا شيء عن كمال، لا شيء عدا العنوان.

- قل لي ما هي سيرة كمال؟

- قلت لك انه يُسَمِّي حيفا حمامة. وهو ايضاً صيّادُ سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلعُ الى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرج العاشق السيىء الحظ من جربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى. يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصل الى اثبات البراءة او نفيها، فيدخل في السجن الأول ويخرج الى طريق آخر. لأن العاشق السيىء الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعتُ الشارع هناك لم أكن أحمل قنبلة ولم أنتبه الى لافتة «منطقة مغلقة»... كنتُ أحمل اشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت ُزَفُّ في لك الليلة. وماذا لو قلت ايضا: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع. ولكن القمر أطلّ قوياً فرأيت الحجارة المدبّبة حت سطح الماء الصافي، فخفتُ الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً واضحاً جارحاً. فتباً للذين عَيّنوا

موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان يَنبغي عليّ ان أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو، هل يُصَدِّق؟ هل يُصَدِّق أني اجتزتُ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دَلَّني القاضي على ان للبحر طريقا آخر. او انّ في البحر سراً آخر. ومن يومها وانا اذهب الى البحر ولا أراه.

- هل عرف لماذا لا راه؟ لأنك ذهب الى الشاطىء.

- ولكنني أرى البحر.

- لا أحد يعرف البحر كالآخر.

- وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو الى الحمامة؟

- عاد الى البحر... عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس. ربما كان يعتقد ان الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة، ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم

تُولد وردة

إذا عاشت طويلاً

ضاعت الحمامة.

- ماذا كان يعني؟

- لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة...

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة من ماء. ويكون الضوءُ قصباً...

وفي الخريف سكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم...

وفي الخريف ذبل الحمامة...

وفي الخريف يتحول القلب الى ُفاحة ناضجة...

وفي الخريف نكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان...

وفي الخريف ينطقُ الأخرس:

يا ليتني أرمي خُطايَ

على طريقٍ مِنْ زَبَدْ!

يا ليتني أرمي خُطاي لكي أنام

على سرير من زَبَدْ

حيفا! لماذا لم طيري كالحمام

حيفا! لماذا لا قولين الحقيقة:

أنتِ طيرٌ أم بَلَدْ

يا ليتني أرمي خُطاي

وأستريحُ الى الأبدْ...

... وسرق كمال زورقاً...

ظلَّ يجدف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرّز من الحور والغيم واضحاً. وكان حرس الشواطىء واضحين. فأدار المجداف عائداً الى عرض البحر وتظاهر بصيد السمك، ريثما يهبط الغروب ويقفز الى طوق الحمامة النائمة على بعد دقيقتين من الموج.

رأى موجته الضائعة فتعرّف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاما، على صوت الرصاص القادم من منطقة البلدية. فتح النافذة فرأى الناس ندفع الى الميناء، فهبط من شارع عباس وأبحر مع المبحرين الى ميناء عكا التي لم كن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل الى صور.

يبدو ان كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره

الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شردته لتعيده الآن. كأنَّ حالماً قد استطاع ان يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل ان عاد بحارٌ على الموجة التي شرَّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل ان قتل قتيل قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل ان عاد أحد على طريق الرحيل؟ لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحجّ. كان يُنزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيمسك بالزورق بكلتي يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلِّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبا كسّر وتبعثر. سيتحسَّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطىء ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريّ العتيق الذي بدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت الى شبابيك علَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً الى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خمس درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس بشرفاته المتدلية على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر

الى الزاوية الشرقية المطلة على درج عريض يؤدي الى حيّ اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفرن الواقع على رأس الوادي. سيصعد درجاً طويلاً على اليمين. سيحيي السكّان الجالسين على شرفات جلس على الارض عند مدخل شارع حدّاد. ويصل الى قاطع الدرج مع ثلاثة شوارع صاعدة يأخذه أحدها الى شارع عبّاس. سيصعد ويصعد ويصعد ولن يلهث. سيقف طويلا أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السنديان والطَيُّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبُّها لأول مرة ايضاً. سيضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شدة الصدأ. سيدق على باب الجيران، ويُسَلِّم عليهم ويشاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سيفتح باب بيته ويسرع الى حنفيَّة الماء ليسقي النباتات التي عطشت. سيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات... ساعات... ساعات. سينام الى الأبد.

صحا كمال من غفوته القصيرة. الفرح يملأ البحر. ومن فرط إحساسه بالحرية شعر أنه حَبّةُ قمح. وأن البحر ربة خصبة. وأن الموج سنابل..

نظر الى ساحل يمتدَّ في يده الممدودة، فرأى قطعة ملسٍ خرط الجبل لتنحت له مهداً سريعاً، سينام أعلى من البحر قليلا... أعلى من النوم. سيشتهيه البحر. سيحوله الى عصفور من الحجر. سينام بعد قليل...

وحين هبط الغروب، جدَّف جمال بحماسة لم يعرفها من قبل. وحين اقترب من الشاطى سلَّطت عليه الحمامةُ اضواءها الكاشفة. لقد احتاج الأمر الى وقت ليعرف كمال أنه مُحاصَرَ بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوّبة عليه من جهات البحر كُلِّها، وأن الحمامة ليست هي التي بهر عينيه...

تجعَّدت الموجة

تجعَّد القلب...

- هل معك أسلحة للقتل؟

- معي حنين يقتلني.

- من أين أنت؟

- من الحمامة.

- الى أين مضي؟

- الى الحمامة.

- ما هي هذه الحمامة؟

- حيفا.

- من أرسلك؟

- خيط الدم.

- كم عمرك؟

- موجة أتي وتضيع.

- أين كنت قيم؟

- في صور.

- ماذا كنت عمل هناك؟

- أصنع آلهة.

- ما أسماء آلهتك؟

- الحمامة.

- هل أنت فدائي؟

- لا.

- وماذا ريد؟

- أريد ان أدفن جُثَّتي بيديّ حت طوق الحمامة.

لم يُصَدّق رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه، ظنوه يناور.

صعدوا الى زورقـه بحذر شديد. قيدوه. نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية. سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق. أنا اعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة..

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

- هل كل ما في الأمر أنك ريد أن رى الحمامة.

- نعم..

- اذن، سترى الحمامة!

دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: ابق هنا. وانظر الى الحمامة. الحمامة أمامك...

كان ينزف، وكانت الحمامة كبر وتصغر...

وبعد أسبوع، أعـاد البحر جثته الـى شاطىء صـور، الى الصخرة التي كان ينظر منها الى الحمامة...

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر...



دخلتُ في ليل المدينة الكحليّ مثقلا بالتعب و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حـادَّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغَّل في ما هو أكثر من أوَّل الليل، من أوصلني الى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل الى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع، كانت قنابل الطائرات المضيئة فتح ظلام الزقاق واسعاً لخطىً أجُرُّها جراً. هنا لم أمُتْ. هنا لم أمُتْ بعد. من عشر سنين وأنا اسحبُ ظلّيَ على هذا الرصيف، وأوقع غربتي، وأعرف أنني لن أبقى أكثر من عام، كدَّس العام على العامِ. منذ عشر سنين وأنا اقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أُوثر الطريق البريّ، الطريق الأول الذي مشيته منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية الى هناك. هل نسيتُ أن أرجع، أم نسيتُ ان اتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شيء، منذ عشر سنين؟ مشي أيامي أمامي كقطيع من ماعز لا يأتلف. مشي أيامي ورائي كرائحة الـوردة الواقفة عكس الريح. وتمشي أيامي حولي كما أمشي حولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى

الآن. ولكن هذا الصراخ الهابط من السماء، والصاعد من الارض لا ينقطع، ولا يُتيح لأية صورة من صور أيامي ان رسو على شكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسمح لطيشي بأن يتغافل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضيء لأطرد عن رؤياي سحابة الطائرات كما يطرد المرء الذباب. كفى! قُلتها بصوت أعلى، فردّت بصوت أعلى وأعلى... وبصقتْ كتلاً من لهيب أعادتني من رحلة القطار المسافر من حيفا الى يافا لأعرف أني أسير على طريق آخر. كفى! فهمتُ... وماذا لو كنتُ هنا. هنا لم أمت... لم أمت بعد. كفى... سنخرج، قلنا سنخرج، فلماذا واصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى... ليتنا لا نخرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد، وأشعة الليزر، والقنابل العنقودية، والقنابل الفراغية... كفى! استعراض قوة مترف. قضم المدينة والأعصاب. والظلامُ سريع الانتشار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعة فحم واحدة نجب هذا الظلام كُلَّهُ في أقلّ من نصف ساعة. ولأول الليل مذاق مُرّ، حامض، رخو، مذاق يخلق في النفس بلاداً غريبة الغربة، ويخلق في عطش الجسد الرطب شوقاً خاملاً الى عطش جسد رطب آخر، ويسوق النسيان الى مجرى آخر: كلانا يقتل

الآخر خلف النافذة. قطار الساحل يسابق البحر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار، مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحديد، مطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقي يداعب صديقي الناحل المكفهر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة ان نعود في الليل، لنذهب الى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجِّل - أنا موجود. سجِّل! إيقاع قديم أعرفه. سجِّل - أنا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجِّل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنُهُ احدى هذه الطائرات. قُلتها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قُلتها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة يارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا كتفي بأن شير الى أبي، بل طاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأن أقولها هنا في بيروت: سجِّل، أنا عربي، هل يقول العربيُّ للعرب أنه عربي؟ يا للزمن

الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ الى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء الى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع، نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ معين في الحفلة مقهقهاً: لم عد فتى. الحمد لله، خلَّصنا من فتىً آخر. لم عد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أنك في الأربعين. قلت: أنسيت أنك قترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً. الأعمار كلها تشابه بعد عتبة الأربعين، لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. أهلاً وسهلاً. لم عد فتى، لم عد فتى. لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة. قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به... يا للزمن! القطار يقُص البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي الى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟ وهل كنتُ حقاً في السابعة والعشرين حين احتكَّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبَّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات

الحصان الهاوي من جبل الكرمل الى البحر الابيض المتوسط؟ الى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة.. والى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة... ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلاّ الآن. قطار ومطر وشجر، ومدفأة، وقدمان حافيتان بيضاوان. على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته الى النهر. وهي قول لي: خذني الى استراليا. وأنا اقول لها: خذيني الى القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكنني كنت أحلم، فهل الحلم هو اختيار النسيان. ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حيّ. يا للزمن الحيّ، يا للزمن الميت، لقد اكتملت الدائرة. أُمي البعيدة فتح باب غرفتي وتقدِّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي ان اضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي ان أمتطي الحصان ما دام سرجه سيسقط ليسقطني حته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتَّح، ينفرج، يصير ابيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع الى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، البحرية، والمدفعية. أشعلتُ قنديل الغاز لأُعد طقوس النهاية. ما زالت

الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ الى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما أوصي به. لا سرَّ في حياتي، لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة احتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمام. يحطُّ الحمام. يطيرُ الحمامُ. يطير الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد...

سمعتُ نقرتين على الباب. هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديتُها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت بحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم جد أحدا.

- هل هذي، أم حلم؟

- شيء من هذا، شيء من ذاك.

- من هي؟

- لا أحد.

- هل هذي؟

- أحياناً...

اقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة... ناراً زرقاء بيضاء. فحيح. هسهسة ملحْ. أنين قطط مكبوت. ورغبة في موت مختلف.

- أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

- في كل يوم الى أن ينتهي الحصار. أعود الى بيتي... وتخرج من هنا. كن ابوتي لأكون ابوتك.

- على الشرفة. أريد ان أرفع ابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

- مجنون؟

- مجنون في الحياة.

- لا.

- على الشرفة سترفعين ابوتك. الشرفة هي اعتداءُ الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد ان أخاف. لا أريد ان أخجل.

- ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

- أمن الضروري أن صرخي دائماً ؟

- الرجل لا يفهم المرأة.

- المرأة لا فهم الرجل...

... وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضروات ونداء الباعة، وضجيج البار المسلَّح، ومشاكل الماء والمصعد كما آلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة طل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتتبادل الأسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمت. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا الى خشخشة في سيارة، فنبَّهنا سكان الشارع الى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأمان حول الجامعة الاميركية، من كل انحاء المجازر والطوائف.

وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما وقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كُلُّه حين عرف أن في وُسع جرذ واحد ان يُهجّر حيّاً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يُهجّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنا، لم أمت، لم أمت بعد. كُلَّما كانت حطُّ الطائرة في مطار بيروت كُنت أشمّ روائح المجهول، وعبق الرحيل القادم. كان الضباب الصاعد من رطوبة الصيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع، يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشياء شكلاً محدداً، شكلاً من الغموض المحدد، شكلاً من أشكال واطؤ الطبيعة مع الهاجس، أي هاجس. وخاصة في آب، آب الشهر الدنيء، السافل، العدواني، الحاقد، الخائن... آب القادر على زويد الرمز بما يحتاج اليه من جثث، وعلى مدِّ راخي الجسد بما بول عليه الطبيعة من عبوس البخار ونذير الرطوبة المحتقن. وجه آب وجه حاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذر، ضجر، قاحل، قاتل، مائل الى نهايات طول مقدماتها، نهايات لا بدأ ولا نتهي. كأنَّ آب طائفية الفصول

التي لم جد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل الى الأفق زفير الرصاص.

- قل لي، يا أخ محمود، ماذا قصد بالبحر، ما معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

- من أين أنت يا أخ؟

- من حيفا.

- من حيفا، ولا عرف البحر؟

- لم أولد هناك، وُلدت هنا في المخيم.

- وُلدت هنا في المخيم، ولا عرف البحر؟

- نعم، أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟

- معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.

- هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟

- نعم، البحر هو البحر، في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.

- ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننتُ أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا...

- لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، وبحرك هو بحري.

نحن من بحر واحد، والى بحر واحد... البحر هو البحر...

يتعجّب المقاتل من عجز الشاعر عن فسير شعره. أو يتعجّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. او يتعجّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

- ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر الى الشعر، حين حمل البحر على كتفيك وتُثَبِّتُهُ أين شاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر، وشعر البحر؟

- أنا بريء، أنا أدافع عن حقِّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.

- وأنا ايضا... ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضي بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يُسفر عن أبيض لا نهائي، ولا يُسفر عن ساحل، الى أين... الى أين يأخذنا البحر في البحر؟ وهنا لم أمت. لم أمت بعد. سأنام. ما النوم؟ ما هذا الموتُ السحريّ المفروش بأسماء العنب؟ جسد ثقيل كالرصاص يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشرَّبُ النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل

في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على جعُّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات رتخي وتتوتر. يفتح لي ذراعه. استأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. أحمده. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك دريجيا الى رمادي وأبيض . النومُ أبيض انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينُه الأخيرُ... وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلات قوية، عضلات من زهر الياسمين. النوم سيّد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإله. أستسلم اليه كما يستسلم العاشق لمدائح المرأة الأولى. النوم جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرجُ من منام.

- هل أنتَ حيّ؟
- في منطقة وُسطى بين الحياة والموت.
- هل أنت حيّ؟
- كيف عرفت أنني أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟
- لأنك أيقظتني الآن حين حركت في بطني. هل أنت حيّ؟
- لا أعرف، لا أريد ان أعرف. ولكن هل يحدث كثيرا ان

يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو فسير المنام؟

- هذا ما يحدث الآن... هل أنت حيّ؟

- ما دمتُ أحلم، فأنا حيّ. لأن الموتى لا يحلمون.

- هل حلم كثيراً؟

- حين أقترب من الموت...

- هل أنت حيّ؟

- قريبا، ولكن في الوقت مُتَّسعاً للموت.

- لا تمت.

- سأحاول.

- هل أحببتني؟

- لا أعرف.

- هل حبني الآن؟

- لا.

- الرجل لا يفهم المرأة.

- والمرأة لا فهم الرجل...

لا أحد يفهم أحداً.

ولا أحد يفهم أحداً.

لا أحد يفهم...

لا أحد...

لا أحد...

البحر يمشي في الشوارع. البحر يتدلى من النوافذ وأغصان الشجر اليابس. البحر يهبط من السماء ويدخل الغرفة. أزرق... أبيض... زبد... موج. لا أحب البحر... لا أريد البحر، لأنني لا أرى ساحلاً، ولا حمامة. لا أرى في البحر غير البحر. لا أرى ساحلاً. لا أرى حمامة.